فـى
الأخلاق الإسلامية والإنسانية

الدكتور
على معبد فرغلى

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله
رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.
(آل عمران:٨)
صدق الله العظيم

المقدمة:

الحمد لله الذى رأى أن أفضل ما يعلى به قدر نبيه ويجعله فى طليعة صفوف البشر كافة هو أن يخاطبه بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى سكبَ على الأخلاقِ من نور جوامع كلمه ، ما جعله خليقاً بأن يكون تاجاً سماوياً خالداً تزدان به رءوس العلوم والفنون إذ رفع الصوت جهرة منادياً بالأخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (وأن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً) ، ورضى الله عن أصحابه الغر الميامين الذين رفعوا ألوية الخير المطلق ، وزادوا عن حياض الفضيلة إلى اللحظات الأخيرة من حياتهم .

وبعد : فإن كل ما نرجوه من هذا العمل هو أن أوفق إلى أن ارسم للقراء أولى طرق سير الفضيلة واضحة معبدة ، سهلة السلوك ، وأن أضع بين أيديهم على ما فى الرذيلة من شرور وأضرار ، ليجتنبوها ويجنبوها كل من يوكل إليهم أمر تربيتهم ورعايتهم فى شتى نواحى الحية وجميع أنواع السلوك لأن هذه هى الغاية القصوى من علم الأخلاق ، والله أرجوا أن يسدد فى هذه السبيل خطانا ويكلل بالفوز والنجاح مسعانا إنه على كل شئ قدير وبالإجابة جدير ، فنعم المولى ونعم النصير هذا وبالله التوفيق .

دكتور / على معبد فرغلى

تمهيد

لما كانت الأخلاق هى روح الحية الإنسانية ، وضوء عينها ، وقبس النور فى هذا الوجود المظلم ، وسر المبدع الأول الذى قذف به فى قلوب بنى البشر منذ اللحظة الأولى لوجودهم فقد سار الإنسان الأول على ضوئها واهتدى بهداها ، وأخذ يبث تعاليمها وينقش فوائدها فى رؤوس أبنائه ، وأحفاده وأسرته ومجتمعه ، الذين خلقوا على أتم استعداد لقبول هذه النصائح لأن البارئ جل وعلا قد منحهم من السر النورانى الكثير ، كما منح أبويهم الأولين ، والله أمر بنصحهم ليحفظهم مما عساه أن يحول تيار إرادتهم إلى ناحية الشر ، لا سيما وأنه قد علم أن النفس البشرية متأثرة بعوامل مختلفة تخضع لأحدها تارة، والثانى تارة أخرى وهكذا مازالت الإنسانية سائرة على هذا النحو يلبى بعض أفرادها صوت الضمير الأعلا فيسلك سبيل الهدى والرشاد ، ويذعن البعض الآخر لقوة الشهوة أو التوحش الإنسانى فيهوى فى حضيض التعاسة والشقاء ، وما انفك الأبناء يرثون عن الآباء عادات وتقاليد أخلاقية متعددة كما يقلدون الأخوة والرفاق فى خيرهم وشرهم وينسجون على مناولهم المختلفة التى هى مزيج من حسن الحياة الدنيوية وقبحها وخليط من بياض الفضيلة وسواد الرذيلة ، والتى لا يصلح نظام الوجود إلا بتسيرها على هذا النسق المعتدل الحكيم .

ومن المعروف أن علم الأخلاق لم يأخذ مكانه تحت ظل الشمس فى الفترة الأولى للحياة البشرية ، فيما نعلم حتى ظهرت الفلسفة اليونانية التى انتهى بها الأمر بفضل (سقراط) إلى احتضان الأخلاق واعتبارها غصناً من أهم أغصان شجرتها ، ومازال هذا الوليد يتدرج ويترعرع فى حضن أمه الرءوم (الفلسفة) ويلاقى من (سقراط) وتلاميذه منذ القرن الخامس قبل المسيح إلى اليوم رعاية كما تختلف كثرة وقلة بإختلاف العقليات والبيئات والعصور وسوف نسير فى دراسة علم الأخلاق على الوجه التالى .

التعريف بعلم الأخلاق والضمير ، ثم الفلسفة ، وعلاقتها بالتربية مع عرض موجز لقانون الأخلاقى ثم الفروق بين القوانين - ثم الدين وقوة تأثيره على النفوس ثم بيان لبعض المذاهب الأخلاقية عند الأمم الأخرى وأخلاق الصوفية وغيرها من الموضوعات الهامة فى مبادئ الأخلاق.

الحكم الخلقى ثم المذاهب الأخلاقية المختلفة مع علاقة هذه المذاهب بالإسلام ، ومدى صلة النظريات الأخلاقية بالإنسان وعلاقتها بالأديان ، والمثل الأعلى فى الأخلاق والتصوف الإسلامى ثم المسئولية والجزاء.

والله أسأله التوفيق والسداد ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الفصل الأول

المبحث الأول

تعريف علم الأخلاق

خلق الإنسان وعاش على وجه الأرض من أزمان لا يعلمها إلا الله وتناسل وتكاثر بإذن الله وكرن مع غيره جماعات مثل الأسرة والعائلة، كبرت هذه الجماعات مع مرور الزمن، فصارت عشائر وقبائل ثم قرى ومدن، ومن القرى والمدن تكونت الأمم والدول، وقد حرص الإنسان منذ وجوده على تدبير لباسه الذى يحفظ جسده، ومسكنه، الذى يأوى إليه ومعاشه، وفكر أن هناك عاملاً آخر لا يقل أهمية عن المأكل والملبس والمسكن، وهو الصفات التى يجب أن يتصف بها، هو وبنى جنسه ومعرفة ما ينفع وما يضر من الصفات، وكل أساس أو قاعدة يتخذها الإنسان فى أفعاله وسلوكه، يجب أن تجلب إليه الخير، فالخير إذا كان هدف الإنسان الأول من تفكيره فى أمر نفسه وأمر الجماعة التى يعيش فيها، والشر، يضر وهو عكس الخير فليبتعد عنه.

من هنا كان أصل معرفة الإنسان بالخير والشر، ومن هنا كان بدء إدراكه للفضائل والرذائل: وقد تدخلت العناية الإلهية رحمة بالبشر فى كل طور من أطوار المعرفة فأرسلت إليهم الرسل لهدايتهم إلى المعرفة الصحيحة وأنزلت الكتب السماوية موضحة ومحددة لجميع سبل الخير وناهية ومحذرة عن كل شر.

ومن وقت بعث الأنبياء وإرسال الرسل ونزول الكتب تحدد الخير والشر وأصبح الإيمان بالله والتعاليم السماوية هى الحكم الفصل فى اتجاهات الإنسان وأفعاله، فإما إيمان قوى يقود الإنسان إلى الخير، وما الحاد وكفر يجره إلى ارتكاب الشرور.

وهنا تدخل الإنسان فى أمر نفسه واندفع ألى المعرفة والثقافة بكل قواه المادية والروحية فابتكر علم الطبيعة ليبحث فى مظاهر الكون من

حرارة وبرودة وانكماش والكيمياء ليبحث فى حقائق المواد وخواصها، والجغرافيا ليبحث وليدرس عاله من ناحية الطبيعة والسياسة، وكذلك ابتكر علم الأخلاق ليحدد مكانه من الله أو من الشيطان ، ولفطرته المؤمنة الصالحة ، كان اتجاهه إلى الله اعظم واشد ، وعلى ذلك ظهر علم الأخلاق بين العلوم عزيز المكانة كريم الأهداف ، وحدد الفضائل والراذائل جميعاً وبين للناس أن التحلى بالفضائل هو أفضل وأعز ما تحلى به الإنسان فى الحياة الدنيا .

وإن الرذيلة وبل فى الدنيا والآخرة ، من هنا يمكننا تعريف علم الأخلاق بالآتى :

تعريف علم الأخلاق :

علم الأخلاق هو علم بالفضائل ، وكيفية اقتنائها ليتحلى بها الإنسان، وعلم بالرذائل وكيفية اجتنابها ليتخلى عنها، والإلمام التام بجميع القواعد التى باتباعها يكون عمل الإنسان خيراً ، ويتجنب الشر فتكون حياته سعيدة بقدر الإمكان والآخرة خير وأبقى .

موضوع علم الأخلاق :

إن وظيفة علم الأخلاق الأساسية والأولى أنه يبحث فى الأعمال التى يقوم الناس بها ويصدر حكمه عليها بأنها أعمل خيرة أو شريرة .

وهنا يتساءل الباحث هل من العدل والمنطق أن تخضع جميع الأعمال التى يؤديها الإنسان للحكم الخلقى .

يجدر بنا قبل الإجابة على هذا التساؤل أن نبين بالتفصيل أنواع الأعمل التى تصدر عن الإنسان ونقرر أيها يخضع للحكم الخلقى وأيها لا يخضع، وتنقسم الأعمل بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام .

١ - أعمل إرادية .

٢ - أعمل غير إرادية .

٣ - أعمل آخذة بشبهة بين الإرادية وعدمها .

أولاً : الأعمال الإرادية :

وهى الأعمل التى تصدر عن الإنسان بعد تفكر وتدبر لنتائجها المرتقبة وتكوين إرادة لعملها ، فإذا أراد الإنسان أن يتزوج فكر طويلاً فى هذا الأمر ، وأخذ يستعرض الأوصاف التى يتطلبها فى شريكة حياته، وأخذ يستعرض حالته المادية ويفكر فى كل هذه النواحى ليتخذ قراره النهائى فى الأمر أيقدم على الزواج ، أم لا ، فإذا قرر الزواج فإنه تتكون لديه الإرادة والرغبة التى تمكنه من إخراج هذا الأمر من حيز الفكر إلى حيز العمل الفعلى .

ثانياً : الأعمال غير الإرادية :

وهى الأعمل التى لا يفكر فيها الإنسان وليس له أية إرادة فى حدوثها ولا يتدبر فى نتائجها ولا يمكن أن يتحكم فى النتائج .

فعملية الهضم مثلاً أو عملية التنفس أو نبض القلب ، هى جميعاً أعما آلية دون أن يكون لتفكير الإنسان وإرادته أى تدخل فيها ،وقد تتم هذه الأعمال على أكمل وجه، ويستفيد الإنسان بنتائج عديدة كما لها فوائد جمة .

وقد تتم وفيها قصور فتعود على الإنسان بنتائج وخيمة ، وفى كلتا الحالتين لا يكون للإنسان أى تدخل فى حدوثها أو فى التحكم فى نتائجها.

ثالثاً: أعمال آخذة بشبهة بين الأعمال الإرادية وغير الإرادية.

وهى الأعمال التى إذا نظرنا إليها من زاوية حسبناها أعمالاً إرادية وإذا نظرنا إليها من زاوية اخرى ألفيناها غير إرادية .

فمن الناس مثلاً من يأتى أعمالاً وهو نائم فيقوم من فراشه من غير أن يشعر بأنه يسقى زراعة له ، أو يذهب لزيارة قبر عزيز لديه ، أو

يقتل شخصاً فى طريقه ، ثم يعود إلى فراشه مرة أخرى ويستغرق فى نومه دون أن يدرك أو يدرى بما حدث .

ومن الناس من يصاب بنوبات عصبية تجعله يرتكب حماقات كثيرة فى حالة هياجه العصبى فيضرب الآخرين أو يقتلهم وهو غير مدرك لما يفعل .

هذه الأعمال جميعاً وأمثالها إذا نظرت إليها من زاوية أنها اعمال تمت وأحدثت آثاراً ، إما خيرة أو شريرة لامكانك أن تصفها بأنها أعمال إرادية، ولكنك إذا نظرت إليها من زاوية أنها أعمال تمت دون أن يكون للفكر فيها أو الإرادة نصيب لتحتم عليك أن تعتبرها أعمالاً غير إرادية والآن وقد بينا الأنواع المختلفة للأعمال ، فلنجب عن تساؤلنا .

١ - أى هذه الأعمال تخضع للحكم الخلقى وأيها لا يخضع .

الأعمال الإرادية تخضع للحكم الخلقى فيحكم عليها بأنها خير أو شر وأن صاحبها خيراً أو شريراً ويحاسب على ما أتاه منها لأنه فكر وتدبر فيها واتخذ قراره لإتيان هذا العمل ، فهو إذاً مسئول عن كل النتائج التى تحدث نتيجة لهذا العمل فإن كانت خيرة امتدحناه ونعتناه بالخير ، وإن كانت شريرة لمناه واحتقرناه بكرهنا له وابتعادنا عنه .

أما الأعمال الغير إرادية فإنها لا تخضع بأى حال للحكم الخلقى فهى ليست من موضوع علم الأخلاق فلا يحكم عليها بخير ولا بشر ولا نحكم على فاعلها بأنه خير أو شرير ، ولا يحاسب الإنسان عليها لأنه لا يفكر فيها وليست له إرادة فى عملها ومن ثم فهو لا يحاسب عليها، فهل يمكن أن يحاسب الإنسان على نبضات قلبه منتظمة أم مختلفة، أو يحاسب على رمش عينه سريع هو أو بطئ إن هذه الأعمال الغير إرادية تتحكم فيها الطبيعة بالقدرة الربانية وحدها، ولا تقع تحت طائلة الحكم الخلقى .

الأعمال التى وصفناها بأنها آخذه بشبهة بين الأعمال الإرادية والغير إرادية فإن هذه الأعمال كلها بالتأمل والتفكر فيها نرى أنها أعمال غير إرادية فليس النائم الذى يأتى بأعمال وهو نائم يتعمد فعل هذه

الأعمل او كانت له إرادة فيم أحدثه من نتائج ولهذا فهو ليس مسئولا وقت أن أتى بهذا العمل لأنه لا إرادة له ، وإنما يسأل ويحاسب إذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه قد يأتى أعمالاً خطيرة وهو نائم ثم لم يحتط أثناء صحوه وإنتباهه لما قد يحصل منه عند نومه فيحول بين نفسه وبين اتيان هذه الأعمل بأن يغلق باب غرفة نومه فلا يتمكن من الخروج منها أو ينام مع من يستطيع أن يحول بينه وبين مغادرته حجرة نومه أثناء الليل ، وهكذا فنحن مسئولون خلقياً عن عدم الاحتياط للأوقات التى نكون فيها غير مسئولين، وكذلك فى المثل الثانى لو أن المصاب بمرض عصبى حرص على أن يصحب معه دائماً من يحول بينه وبين إتيان أعمل طائشة وقت هياجه العصبى ، لما حدثت هذه الأعمل جميعاً ، ولما تحققت نتائجها الوخيمة .

وخلاصة هذا .

أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمل التى صدرت من الإنسان عن عمد واختيار ويعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل ، وهذه التى يصدر عليها الحكم بالخير أو الشر ، وكذلك الأعمل التى صدرت لا عن ارادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه .

وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط لها فليس من موضوع علم الأخلاق .

فائدة علم الأخلاق :

من الحقائق المعروفة والمسلم بها أن كل علم من العلوم يفيدنا فى الميادين التى يبحث فيها هذا العلم، ويمدنا بالنظريات والقواعد التى تجعل المعرفة فى كل نواحيه واضحة متكاملة تبصرنا بأصوله وفروعه.

فعلم الطب مثلاً يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويبصرنا بطرق الوقاية وكيفية توقى العدوى من هذه الأمراض ويشرح لنا القواعد الصحيحة التى تجعلنا أصحاء موفورى القوة والعافية.

ولكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائماً فى أمان من الأمراض وشرورها؟ كلا إن هذا لا يتحقق إلا بأمرين:

أولاً: أن تكون بنية الإنسان قوية قادرة على مقاومة مكروبات الأمراض والتغلب عليها.

ثانياً: أن يتبع الإنسان برضى كل القواعد الصحية ولا يهمل فيها، وإذا أردنا أن نطبق ما قلناه عن علم الطب على علم الأخلاق فإننا نقرر أن علم الأخلاق يبين لنا الفضائل المختلفة ويشرح لنا فوائدها الجمة وكيف أن المتحلى بها يكون الإنسان المثالى ويكون أقرب إلى الله وأعلى منزلة، وانه بفعلها يحيا حياة صالحة قويمة سعيدة.

وهنا نتساءل، هل فى استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخياراً كما تسائلنا فى علم الطب هل يستطيع أن يجعلنا أقوياء أصحاء؟ والجواب عن هذا التسائل أن علم الأخلاق ليس فى استطاعته أن يجعل الناس أخياراً كما عجز علم الطب أن يجعلهم أصحاء وإنه لكى يكونوا أخياراً يجب أن يتوفر عاملان:

أولاً: أن يكون استعداد المرء طيباً وأن يكون ميالاً بطبعه إلى الخير والتقوى والصلاح ويكره الرذيلة بوازع داخلى من ضميره ووجدانه.

ثانياً: أن يتقبل أوامر علم الأخلاق وما يحض عليه من الفضائل، وأن يؤمن برسالة علم الأخلاق ويحملها ويبشر بها.

فعلم الأخلاق إذا يمكن أن تشبهه بالطبيب ، فالطبيب يبصر مريضه بالأضرار التي تنجم عن شرب المسكرات وتناول المخدرات. ويصف له أضرارها ويشرح له تأثيرها الضار فى الجسم والعقل معاً، والمريض له بعد ذلك أن يختار طريقه، إما أن يمتنع عن الخمر فتتحسن صحته، وإما أن يتعاطاها فتفسد صحته والطبيب لا يستطيع منعه، كذلك علم الأخلاق ليس فى استطاعته أن يجعل كل فرد صالحاً ورعاً، ولكن يريد

الخير والشر ويبين له أثارهما، والإنسان بعد ذلك كله حر فى اختيار طريقه إما طريق الشر وإما طريق الخير فعلم الأخلاق إذا لا يفيدنا ما لم يكن لنا إرادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه.

أجل يمكن لمن يدرس الأخلاق أن يصدر حكمه على الأشياء بأنها خير أو شر، وقد يتحلى بالفضائل ويكون صالحاً حسن الخلق ولكن مثل دارس علم الأخلاق ومن لم يدرس هذا العلم كمثل رجل درس الهندسة وآخر لم يدرسها، إذا أراد كلاهما أن يشترى منزلاً، كل يرى ويختبر المنزل ولكن ممارسة الأول وكثرة تجاربه تجعله أصدق حكماً على البناء وسلامة ومتانة أثاثاته وأحسن تقويماً للمنزل ومشتملاته، كما أنه يجب أن يقرر أن كل علم يمنح دارسه المتعمق فى فهمه نافذة فى ميادين المعرفة التى يبحث فيها هذا العلم، فكذلك الحل فى علم الأخلاق فهو يمد دارسه بالقدرة على فعل الأعمل التى يأتيها الناس وتقويمها تقويماً مستقلاً غير خاضع فى أحكامه إلى عرف الناس وتقاليدهم وما ألفوه، بل هو يبنى حكمه على نظريات علم الأخلاق وقواعده، وأخيراً يجب أن نعرف أن أهداف علم الأخلاق ليست قاصرة على تحديد الفضائل والرذائل وتوضيح الخير والشر بل من أغراضه الهامة التأثير فى إرادتنا وهدايتها، وحثنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى يتحقق المثل الأعلى للحياة ويتحقق خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم ، فهو يقوى إرادة الإنسان ويشجعها على عمل الخير، ولكن علم الأخلاق لا ينجح فى ذلك دائماً.

فهو إنما يؤثر أثره ويؤتى أكله إذا طاوعته طبيعة الإنسان الخيره وفطرته السليمة.

يقول أرسطو فى ذلك (ولو كانت الكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً لا استحقت أن يطلبها كل الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ فى هذا الصدد أن تشد أزر بعض فتيان) كرام على الثبات فى الخير، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفياً بعهدها .

المبحث الثانى

الضمير

أولا: تعريف الضمير ووظيفته:

قد يحدث أن يجد المرء نفسه أمام مشكلة من المشكلات، حين يبحث عن حل لها، يجد هناك عدداً من الطرق ويقف الإنسان فى مفترق هذه الطرق حائراً لا يدرى أى طريق يسلك ، وهنا يشعر بقوة خفية تدله على طريق الخير وتدفعه إلى سلوكه، على الرغم مما قد يكون فيه من مشاق وعقبات ، وتبين له طريق الشر وتدفعه إلى تجنبه ، على الرغم مما قد يكون فى سلوك ذلك الطريق من منفعة تخصه ولذة عاجلة، وحين يتبع المرء هذه القوة يحصل على راحة النفس وطمأنينة البال وإذا خالفها يقع تحت طائلة الشقاء والتعاسة.

هذه القوة الخفية النابعة من ذات الإنسان والتى تبين له طريق الخير والشر وتتولى بعد ذلك مجازاته على طاعته أو مخالفته ، هذه القوى هى ما نطلق عليها اسم (الضمير) فالضمير إذن هو (قوة ذاتية فى الإنسان تأمره بالخير وتنهاه عن الشر) وتثيبه إن أطاعها وتعاقبه إن عصاها، ومن هذا العرض والتعريف يتضح لنا أن الضمير له وظائف عدة، فهو من البداية يوضح للإنسان الطريق الذى يتحتم عليه أن يسلكه والطريق الذى يتحتم عليه أن يتجنبه، ثم بعد ذلك يصدر الحكم على الإنسان إن كان يتحتم عليه أن يتجنبه ، ثم بعد ذلك يصدر الحكم على الإنسان إن كان مطيعاً يستحق الثواب ، أو عاصيا يستوجب العقاب ، ثم بعد ذلك يتولى هو تنفيذ ذلك الحكم، فيسبغ على من أطاعه حلل السعادة النفسية والراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويذيق من عصى أو أمره وتوجيهاته سوط عذاب من التعاسة والشقاء والندم، فوظيفة الضمير تظهر فى نواح ثلاث .

أولا: قبل أن يقدم الإنسان على العمل.

ثانيا: فى أثناء قيامه به.

ثالثا: بعد إتمام العمل.

ولذلك نستطيع أن نقول الضمير يشتمل على السلطات الثلاثة الشهيرة:

١- السلطة التشريعية ومعنى هذا أن الضمير يحث الإنسان على أن يقيم التشريع على أساس من الشرع وأيضا فى التنفيذ والحكم على الأشياء.

٢- والسلطة التنفيذية التى عن طريقها يتم العمل خيرا وشراً.

٣- والسلطة القضائية، وفى كل ذلك يركز الضمير فى حسه على التنفيذ والحكم على أساس من هدى الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

ثانيا: ماهية الضمير:

اختلفت الآراء فى ماهية المضير، وأهم هذه الآراء ما يلى:

١- الرأى الأول : إن الضمير غريزة فطرية تولد مع الإنسان وبها يستطيع التمييز بين الخير والشر، كما يستطيع التمييز بين الضوء والظلمة، أو بين الأبيض والأسود بحاسة البصر، وهذا يعنى أن الضمير غير مكتسب من البيئة ، ولا علاقة له بها، وزعماء هذا الرأى هم (بتلر) ، (وجان جاك ورسو) ، (ايمانويل كانت) وحجة هذا الفريق على فطرية الضمير أنه موجود عند الحيوانات العجماء، فمن باب أولى يكون موجوداً عند الإنسان ، يقول (روسو):

لا أحد كان قد علم كلب روسو أن يقتل الخلد - وهو حيوان - بينما هو لا يأكله) وهو يقصد بذلك أن الكلب مزود بقوة فطرية تبين له ما يجب عليه أن يفعله ، ويستدلون على ذلك أيضا بأن القطة مثلا إذا اختطفت شيئا من المائدة فإنها تأخذه وتجرى بيعداً خوفا من الإيذاء لماذا؟ لأنها تملك قوة عرفت بها أنها فعلت ذنباً.

ويترتب على هذا الرأى أنه لا حاجة إلى التعليم أو التربية لأن القوة المهذبة المؤدبة موجودة فى ذاتية الإنسان توجهه إلى الخير وتمنعه عن الشر.

ولا شك أن ذلك الرأي خطأ ، لأننا نشاهد أن الضمائر تختلف باختلاف الأشخاص بل إنها تختلف بالنسبة إلى الشخص الواحد حسب الظروف والأحوال ولو أنه قوة فطرية وغريزة طبيعية لكان واحدا فى الجميع، وفى جميع الأحوال.

٢- الرأى الثانى: أن الضمير مكتسب من البيئة والمجتمع والتربية، وهذا الرأى نقيض الأولى وعليه فالإنسان يولد وليس عنده شئ يسمى الضمير إطلاقاً ، وإنما هو خلو من كل قوة من هذا القبيل، وأشهر زعماء هذا الرأي (أوجست كنت) و(دور كليم) و(جون لوك) .

٣- والرأى الثالث : ينكر وجود قوة تسمى ا(الضمير) لا فطرية ولا مكتسبة ويقولون إن الضمير أكذوبة كبرى يجب القضاء عليها لأنها تعوق التقدم الإنسانى، وهى خدعة من الضعفاء ليقيدوا بها سلطة الأقوياء ، وزعماء هذا الفريق كثيرون أشهرهم (كلينسكليس) مترياً، وهو أحد مشاهير السوفسطائين القدماء ومنشئ مذهب (القوة) ونتشه حديثاً ومذهبه صدى لمذهب السوفسطائيين القديم المشار إليه وهؤلاء، ومن سار على دربهم ينكرون الفضائل ولا يعترفون بشئ اسمه العدل والإحسان أو العفو ، وينادون بحذف هذه الألفاظ من المعاجم اللغوية ويمجدون الحروب والقوة .

ثالثا: رأى الإسلام فى ماهية الضمير:

رأينا فيما تقدم ثلاث آراء فى ماهية الضمير، فما موقف الإسلام منها هل ينكره الإسلام كالرأي الثالث؟ أو أنه يعترف به ، وإذا كان يعترف به فهل يعتبره قوة فطرية أو مكتسبة ؟

إن الإسلام يعترف بالضمير ولا ينكره، والله تبارك وتعالى يقول : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)[1].

ورأى الإسلام أن الضمير استعداد فطرى لدى الإنسان، فليس قوة فطرية غريزية يولد بها الإنسان، وليس قوة مكتسبة بلا استعداد سابق وإنما هو استعداد فطرى يولد به الإنسان ويبلور هذا الاستعداد ويظهر أثره بالخير والتهذيب عن طريق البيئة والتربية.

رابعا : الفرق بين الضمير والعقل :

يختلف الضمير عن العقل والفكر اختلافا واضحا وبينا:

فالضمير يصدر أحكامه بأسلوب مبهم غامض، دون أن يكون الإنسان متفطنا كل التفطن إلى الأسباب والعوامل والمقدمات التى أدت إلى هذه الأحكام فكأن أحكام الضمير إلهام من الله .

أما العقل فيصدر أحكامه بناء على دراسة الأسباب والعلل، وبحث الوسائل والمقدمات، فالأحكام العقلية إنما تقوم بناء على مقدمات فكرية ، وأدلة منطقية وحساب دقيق للأسباب والعلل.

ويتضح الفرق بين الضمير والعقل عندما يتعارضان فى أحكامهما ، فكثيرا مايفكر المرء فى أمر من الأمور، ويدرسه دراسة وافية، ثم يصدر العقل حكمه بناء على هذه الدراسة الواعية، ولكن فى نفس الوقت يحس الإنسان شعوراً داخليا يقدم الإطمئنان إلى حكم العقل هذا، ويجد نفسه غير مستريح أو واثق بهذا الحكم، وهذا الشعور الداخلى هو صوت الضمير .

خامساً - عوامل انحراف الضمير :

على الرغم من أن الضمير يبدو وكأنه صوت إلهام إلهي فى كيان الإنسان فإنه غير معصوم، وكثيراً ما ينحرف عن جادة الحق والصواب .

١- البيئة التى يعيش فيها الإنسان: ففى قرى الصعيد عندما يتمسك الناس بعادة الثأر وينشأ الأطفل على حب هذه العادة، فإذا كبرت ضمائرهم على حب هذه العادة الظالمة الممقوتة ، ولذ نرى ضمير

---

[1] - سورة ق – آية ١٦ .

القاتل منهم لا ينزعج أبدا إذا ما ارتكب جريمة القتل انتقاما لقتل قريبه، بل ربما لا يستريح ضميره إلا إذا ارتكب هذه الجريمة .

٢- العواطف والانفعالات: فالمشاعر غير الواعية كثيرا ما تعمى الغير عن الحق والعدل معا: وذلك كالأم التى يدفعها حنانها وشفقتها على ولدها أن تعطيه طعاما منعه عنه الطبيب وبذلك يؤذى صحته وتزيد علته ، وتعطل شفاؤه .

٣- العادات السيئة : فالمرء إذا تعود على أمر وهو فعل شئ قبيح، فإن ضميره ينام على ذلك الأمر وكأنه أنس إليه أو رضي به لأن الضمير من طول ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتى عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة إليه، كالشخص الذى اعتاد التدخين أو شرب الخمر أو الغيبة.

٤- المصلحة الشخصية : كثيرا ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية أو المصلحة الشخصية وإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان مايسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة: ذلك كأمين المخزن الذى يختلس من عهدته ثم يزور فى الكشوف الخاصة بالمخزن متعللا بأن المخزن ملئ بالخيرات، وان ما يأخذه لن ينقصه شيئا وأن الدولة غنية، إلى آخر هذه العلل التى تستعمل كمسكن للضمير .

هذه هى أهم عوامل انحراف الضمير وللتغلب عليها يجب نشر العلم، وتعميم نوره الذى يضئ الطريق فيقضي على الظلام الذى تعيش فيه كثير من البيئات متقوقعة داخل عادتها وأعرفها الظالة وينمى عند الناس المشاعر الواعية والانفعالات اليقظة ويقضى على العادات السيئة ويغرس فى الناس الشعور الجماعى بحيث لا يضحى فرد بمصلحة الكل فى سبيل مصلحته هو، وعندما ينتشر العلم تتقدم مواكب الخير والحق والجمل وتختفى أشباح الشر والظلم وكل ما هو قبيح فى المجتمعات البشرية.

خامساً: سلطة الضمير :

إن سلطة الضمير التى يفرضها على بنى الإنسان واحدة وثابتة لا تتجزء ولا تتغير ولا تخضع للظروف ولا تنحنى أمام ضرورات الحياة فاللغة التى ينطق بها الضمير حين يأمر بالخير وينهى عن الشرهى واحدة فى كل زمان ومكان ولدى جميع الأشخاص لا فرق فى ذلك بين السيد والعبد والغنى، والفقير، والشاب والشيخ والعالم والجاهل وإنها لغة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا إيهام، وأنها لغة أمر قوية قاسية لا تعرف الرجاء ولا تألف الهوادة واللين، ومنشأ هذه الوحدة فى السلطة واللغة والقوة هى أن الضمير ينطق بصوت الله ويتكلم بلسانه ويعبر عن أوامره ونواهيه، ولو أنه يتكلم بصوت أحد المحدثين والفانين، لا ستطاع الإنسان أن يسكته كلما أثقل عليه الأمر وضيق على شهواته الخناق، نعم إننا نستطيع أن نعصيه ولكننا لا نستطيع أن نسكت صوته ولا أن نقطع هتافاته المتواصلة .

سابعا - الادوار التى يمثلها الضمير:

١- إن أول دور يمثله الضمير: معنا هو دور المكتشف المميز بين الطريقين المستقيم والملتوى. فإن أبرز نتيجة اكتشافه، انتقل إلى الدور الثانى.

٢- ثانيا دور الناصح الأمين، فإذا أتم مهمته ودفع العمل الإنسانى الصحيح بالفعل انتقل إلى دور القاضي العادل .

٣- ثالثاً يقوم الضمير بسلطة القاضى العادل فى توجيه الإنسان والحكم على أعماله فإذا أتم ذلك انتقل إلى مراحل أخرى .

٣- رابعا: دور السلطة التنفيذية التى تتولى توزيع درجات المكافأة والعقاب فتنعم بقسط وأفر من الغبطة والسعادة على القائمين بالواجب والمتمسكين بالفضيلة ويحيل الدنيا فى نظرهم إلى جنة وارفة الظلال دانية الثمار لا يرى الإنسان قيها إلا نوراً وجمالا وغبطة وسعادة ويملأ قلوبهم بالأمل والتفاؤل والميل إلى الاستزادة

من الخير، وهكذا كل فضيلة تتولد مما قبلها حتى تصبح أعمال الشخص سلسلة فضائل لا تنفصم حلقاتها فى فضيلة واحدة، ولكن الإنسان إذا أقترف ذنبا فإن فكرة قاسية حادة تشتعل فى داخل نفسه كأنها شعلة من نار لا تزال تأكل فى فؤاده حتى تقضي عليه قضاءها الأخير، أو هى كما يقول أحد الأخلاقيين الفرنسيين وإنها تجلس بالليل إلى جانب وسادة له ، لتجعل نعاسه سلسلة اضطرامات ومفزعات فإذا استيقظ تولت تغذيبة بقسوة ومن غير انقطاع وتتبع خطواته حتى فى ساعات العمل والمشاغل وفى لحظات التسلية والسرور، إن مثلها كمثل الفتنة تمزق أجزاء الفؤاد بلا شفقة ولا رحمة .

الخلقية الدينية أو الضمير الدينى :

إذا كانت الوحدة فى الإيمان بالله هى هدف المجتمع الإسلامى، وفى الوقت نفسه هى العامل الأساسى فى تكوينه - فإن الخلقية الدينية أو الضمير الدينى عامل فى بقاء هذا المجتمع وعامل فى تماسكه وتعارفه.

الخلقية الدينية هى استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التى جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام وهى إذن كما تقوم على وحدة الإيمان بالله تقوم أيضا على الإيمان برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء فيها، وهناك عامل آخر فى تكوينها يضاف إلى هذين العاملين وهو الإيمان بالجزاء فى الآخرة، وما تم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار فى أن تؤدى الخلقية الدينية وظيفتها فى العمل طبقاً لما آمن به الإنسان، فى فروع الإيمان الثلاثة وهى :

الإيمان بالله، أو الإيمان بالرسول وبما أنزل عليه من وحى وهو مضمون رسالته والإيمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاءات تذكرها فاتحة سورة البقرة، فى قوله تعالى : (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[٢] .

فوصف القرآن هنا الذين يؤمنون بهذه الأنواع الثلاثة بأنهم هم المتقون وهم المفلحون الناجون .

فالإيمان بالغيب فى مقدمة الإيمان بالله. لأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. والإيمان بما أنزل هو الإيمان بالوحى والرسالة الإلهية والمعرفة باليوم الأخر، والإيمان به فى صورة مؤكدة، وفى سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الإيمان تعبيراً آخر، فيطلب الإيمان بها ثم يصف من يكفر بها بأنه قد ضل ضلالا بعيداً،(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً)[٣]

وهذه الحقيقة الدينية التى تقوم على عناصر الإيمان الثلاثة، هى التى تدفع إلى حسن السلوك، وإلى الاستقامة، فى المعاملة، وإلى التعاون والتآخى بين الأفراد، ودفعها إلى ذلك دفعاً ذاتيا لا يحتاج إلى محرك خارجى، ولا إلى رقابة خارجية. إذ لا سلطان على الفرد إلا هذا ، وعندئذ هو الاعتقاد الذى يحمله المؤمن بين جنبيه. والفرق بين الذى يحمل فى نفسه القوة الدافعة إلى العمل المستقيم والتعاون مع الغير وبين القانون الذى يصنعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة، وهى القوة التنفيذية، والفرق هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الإنسان، والإنسان فى المجتمع المدنى الحديث، وهو المجتمع صاحب القانون الوضعى وصاحب السلطة التنفيذية يعمل بدافع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع فى تطبيق القانون يوماً ما أو خفت رقابة السلطة التنفيذية (عليه)

(٢) سورة البقرة، ١، ٢، ٣، ٤، ٥ .
(٣) سورة النساء، ١٣٦.

فإن الفرد يتهاون بدوره فى آداء ما كان يحتم عليه القانون اداءه وما كانت السلطة التنفيذية تطلبه منه .

وإذا فالمجتمع الذى لا يعتمد على قوة ذاتية دافعة من أفراده- كالخلقية الدينية يتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة التنفيذية وعلى مراقبتها لتنفيذ القانون الذى وضع لهذا المجتمع، والدولة الحديثة فى المجتمعات الحديثة تتحمل عبئاً ثقيلا فى سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية وعلى مثل هذه الدقة فى طرفيها.

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبداً بأنه مسوق ومدفوع بقوة القانون، ويشعر كذلك بأن حريته محدودة واختياره محدود لأنه شبه مجبر على ما يفعل ويؤدى من عمل بينما الفرد فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية كالمجتمع الإسلامى فى نظام تكوينه لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسي بل يشعر بأنه هو الذى يدفع نفسه إلى العمل وإنه لذلك حر فيما يندفع إليه.

والحرية الفردية على هذا النحو فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية عامل فى البقاء وعامل فى إتقان العمل لأن الحرية فى العمل والدافع الذاتى نحو الفعل تصحبه دائما رغبة، وبجانب الرغبة متعة كذلك. ولذلك حاول بعض الأخلاقيين المثاليين فى المجتمع الأوربى فى القرن الثانى عشر أن يقرر خلقية ذاتية تقوم على فكرة أداء الواجب وشاعت هذه الخليقة المثالية فى الشعب الألمانى على الخصوص. وعرفت هذه الفكرة بفكرة كانت، أو الواجب الخلقي، ومع أنها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الإنسان دون رعاية للقانون الوضعى وما يصحبه من سلطة تنفيذية فإنها تفترق عن الخلقية الدينية التى يريدها الإسلام للمجتمع الإسلامى " والتى هى أساس لتماسك المجتمع الإسلامي وتعاون أفراده لأنه مهما كان الأمر فلا يغيب عن أذهاننا أن أساس القوة الخلقية هو الاعتقاد بالله: وأن أساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الإنسان للإنسانية.

وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله وأخرى تقوم على تصور الإنسان للإنسان فاعتقاد بالله من شأنه أن يبقى وأن يطول أجله على الامد

بينما تصورات الإنسان من لون الماء إلى لون آخر هذه الخلقية الدينة التى تقوم على العناصر الثلاثة وهى الإيمان بوحدة الله وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام وباليوم الآخر . إذا قوة مثمرة فى أن يحس الإنسان فى سلوكه وأن يحس فى تعامله مع غيره بأن التعاون لم يكن أمراً ممكناً بين الأفراد فحسب، وإنما كان نتيجة حتمية بينهم بل سيؤدى شعوره بالأخوة وإيجاد الألفة الكاملة على المحبة وهنا يمكن التساند والتماسك بين المجتمع الإنسانى وخاصة فى المجتمع المسلم.

المبحث الثالث

لا شأن الفلسفة المعاصرة بالتربية الأخلاقية:

وإذا كانت الفلسفة المعاصرة، وهى الفلسفة الواقعية المادية وما لها من صلة بالعلم والتقدم الصناعى، لا شأن لها بالتربية الأخلاقية كتوجيه للإنسان فى معنى إنسانيته - فإنه غير مأمون من الإنسان فى المجتمع صاحب الفلسفة المعاصرة أن يستخدم تقدمه فى البحث العملي وتقدمه فى مجال الصناعة لإبادة الإنسان وإهلاكه، بدلا من وضعها فى رفع مستواه ورفاهيته، والمجتمعان الحديثان الاشتراكي والرأسمالى كلاهما يقدر الفلسفة المعاصرة ويزهو بالعلم كما يز هو بالصناعة - لا يرى العالم منهما اليوم ، وسوف لا يرى مهما فى غد إلا تستخير البحوث العلمية والتطور الصناعى فى سبيل الإعداد للإهلاك والتدمير للإنسانية وما ينفق فى كلا المجتمعين على البحث العلمي والتطور الصناعى والإهلاك كان يمكن أن يعود على البشرية جميعا بالخير، وعلى افراد المجتمع الإنسانى بفائدة مادية فى رفع مستواه، بجانب فائدة الهدوء والاطمئنان، والشعور بالأخوة فى الإنسانية.

وهذان المجتمعان مهددان بالفناء، وكلاهما يهدد الآخر، وهما يهددان غيرهما، وليست هناك قوى أخرى كابحة لمواجهة العلم والتطور فى الصناعة توجهه وجهة الخير العام

ونخلص من هذا إلى أن الفلسفة المعاصرة أحرزت نجاحا فى التقدم العلمى ونجاحا آخر لم يعرفه التاريخ من قبل فى تقدم الصناعة ولكنها لم تحرز أى نجاح فى تقدم الأخلاق والسلوك الإنسانى، ولا فى ايجاد الضمير الذى يعتبر القوة الذاتية فى الإنسان التى تدفعه إلى استخدام إمكانياته وطاقاته فى سبيل الخير والابتعاد عن الشر ، بل ربما لا تعرف هذه الفلسفة فارقاً بين الخير والشر، لأن الشر والخير من المعانى الأخلاقية التى لا تقر ثباتها وبقاءها، وإنما تنظر إليها كشئ فرعى وتابع لما ينشأ عن التقدم العلمى أو التطور الصناعى وعلى ذلك.

أخفقت الفلسفة المعاصرة إذن فى خلق توجيه أخلاقى وفى خلق خلقية أو ضمير يدفع الأنسانية نحو العمل الإنسانى، أى نحو الآخوة والتعامل فى الإنسانية أو نحو تقدير الإنسان، وهذا هو النقص الذى يلازم هذه الفلسفة وفى واقع الأمر أن النقص هذا كان نتيجة لغلو الفلسفة فى تقيم النظرة الواقعية والتجارب الآلية والرياضية لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدرك بالحس وينشأ عن التجارب المادية كما سبق أن ذكرنا ويلغى كل اعتبار لمعرفة أو توجيه لا يخضع لتجربة الإنسان المادية ولذا ألغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة فى حياة الإنسان، كما ألغى رسالة الدين فى توجيه الناس نحو الله ولو أنها أدركت أن الله هو مركز الكمال فى الوجود وأن السعى إليه هو سعى نحو الكمل، وأن عبادة الله لا تعوق النظرة الواقعية ولا تعوق التقدم العلمي ولا التطور الصناعي، وإنما هو شئ مستقل بذاته يأتى بما تأتى به الفلسفة المعاصرة وهى الفلسفة المادية والواقعية وحدها.

والمجتمعان الاشتراكى والرأسمالى وكلاهما مؤمن باله العلم وإله الصناعة وكلاهما ينكر إله الناس جميعا، وإن كان أحدهما يعلن هنا الإنكار فى غير خفية والثانى ينكره بالتطبيق لا بالقول - فوق أنهما فقد الضمير كقوة ذاتية واقعية للإنسان فى مجل التقدير والتقييم - فإن أحدهما يفترق عن الآخر بأن الفرد فى المجتمع الاشتراكى يدفع إلى الإنتاج بعامل الخوف

والرهبة من سلطة الفانون بينما الفرد فى المجتمع الرأسمالى يدفع إلى الإنتاج بعامل الجشع والطمع والأنانية إذ المجتمع الأول وقد سلب أفراده ما يملكون ولم يجعل من أهدافهم تحصيل الملك أو تنميته لم يكن له بد من أن يدفع، أفراده إلى العمل والإنتاج بسلطة الإقناع وبجانبها سلطة القانون، ولأن المجتمع الثانى، وهو المجتمع الرأسمالى لم يضع حدودا لحرية الفرد فيما يملك وفيما يتصرف من أجل تحصيل الملك وتنميته بل لقد شجع على الفردية واستغلال الأنانية .

ولذا فى المجتمع الاشتراكى يبدو أن هناك تعادلا بين الأفراد بينما بدافى المجتمع الرأسمالى عدم التوزان والتعادل، وما بدأ من تعادل فى المجتمع الاشتراكى لا يعبر عن حقيقته لأن أفراده جميعا لا يملكون حتى يقال إن هناك تعادلا أو عدم تعادل وليست لهم حرية فى ما يعملون حتى يقال أن هناك تعادلا أيضا فى مجال حرية العمل، وطغيان الفجوة بين طبقات المجتمع الرأسمالى فى التعبير عن حقيقة واقعية فية نتيجة لسيطرة الفردية والأنانية وأيضا ترابط المجتمع الاشتراكى ترابط مصطنع أو من خارج عن ذوات الأفراد، أما المجتمع الرأسمالى الفردى فقلما يكون هناك حديث عن ترابط فيه.

الفصل الثانى
المبحث الأولى

أ- القانون الأخلاقى

تعريفه :

هو الصلة التى يجب أن توجد بين الإنسان ومثله الأعلى، أو كما يقول بعض المتأثرين بعلم الاجتماع من الأخلاقيين، إنه هو الصلة التى يجب أن تكون بين الإنسان والإنسانية أو بين الفرد والعالم، ولكن التعريف الأول هو المعول عليه وهو الصحيح فى رأيى، لأنه ينشأ على أساس بأن المثل الأعلى أو الكمال المطلق هو الذى يحول الإنسان نحو الفضيلة او بعبارة أو ضح : أن الإنسان يعمل الفضيلة متأثرا بدافع داخلى قوى ميل بفطرته إلى السير المتواصل نحو المثل الأعلى. أما التعريف الثانى: فإننا نستخلص منه أن الجمعيات البشرية هى التى توحى إلى الإنسان ما يعمله من الفضائل والخيرات، ولا ريب فى أن هذا الرأى مصدع الأركان كما سبق أن ذكرناه فى بيان الضمير، ولما كان دراسات الكائنات الحية مرتكزة على أسس علمية ثابتة فقد أصبح من الطبيعى أن يكون علم الأخلاق كذلك لأنه يشتغل بدراسة سلوك أهم هذه الكائنات الحية وهو الإنسان ولهذا لم يكتف الفلاسفة المحدثون بأن يتركوا علم الأخلاق يعتمد على ما وراء الطبيعة كما كان فى عهد "أفلاطون" ولم يسمحوا له كذلك بأن يعلن خصومته وعدائه للمادة كما كانت الحل فى العصور الوسطى التى انتشرت فيها الأخلاق " الكاثوليكية " بل أعلنوا أن علم الأخلاق كغيره من العلوم المؤسسة على دعائم حلقية حقيقة ثابتة، غير أن قانون الأخلاق يختلف عن الطبيعة والمنطق لأن الأول يشتغلُ بدراسة ما يجب أن يكون وأما الأخران فإنهما لا يعبآن إلا بما هو كائن، وإذا صعدنا إلى الحلقة الأولى من سلسلة تاريخ العقلية البشرية المنظمة وجدنا القانون الأخلاقى معترفا به فى كل مكان. فهو الذى يسميه "سقراط" بالقانون الغير مكتوب تفريقا بينه وبين القانون الوضعى المكتوب وإنا لناقلون لكمَ هنا نبذة من تلك

الحادثة العلمية الطريفة التى دارت بين " سقراط" وبين أحد تلاميذه فأبانت لنا عن قيمة القانون الأخلاقى ووضحت المنبع الذى نشأ منه وهاكم طرفا منها سأل سقراط يوما تلميذه هيباس قائلا: هل تعرف ما هى القوانين التى ليست مكتوبة ؟ فأجاب التلميذ تعن إنها هى القوانين المتحدة فى كل زمان، والتي تعالج موضوعات متفقة وترمى إلى غاية واحده سقراط: هل تستطيع ان تنبئى إذا كان الإنسان هو واضع هذه القوانين هيباس وكيف يمكن أن يكون ذلك وأفراد الإنسان لم يجتمعوا مرة فى صعيد واحد حتى يتفقوا على وضعها، ولا سيما وأنهم لا يتكلمون بلغة واحدة ولا يستطيعون أن يتفهموا قوانين الأخلاق بسبب اختلافهم.

"سقراط " : فمن الذى وضع أسس هذه القوانين الأخلاقية فى رأيك هيباس. أما أنا فأعتقد أن هو الذى ألهم الإنسان هذه القوانين وفوق ذلك فإننا نرى رفعة القانون الأخلاقى الوضعى فى الأدب اليوناني، إذ نرى سقراط يصور لنافى إحدى مآسيه (الفتاة) (أنتيجون) بنت " أوديت " تضرب بالقانون الوضعى عرض الأفق فى سبيل الإذعان للقانون الأخلاقى رغم ما كان يتهددها من خطر داهم وشر مستطير .

وإذا تركنا بلاد الإغريق وعرجنا على روما فى عصورها الزاهية وجدنا " شيشرون " يقول : هناك قانون يتفق مع الطبيعة تماما الاتفاق ، وهو عام يشمل كل أفراد الإنسان بلا استثناء وهو ثابت لا يتغير وخالد لا يزول ، وهو يأمر دائما بالفضيلة ويحظر من كل أنواع الرذائل والشرور، هذا القانون هو عينه فى " روما" وفى أثينا " وسيكون غدا كما كان اليوم عاليا صلبا لا ينحنى ولا يلين أمام أى عامل من عوامل الحية وهو يختص بكل أفراد بنى الإنسان دون أية عناية فى الظواهر والجنسيات من فروق .

وإذا ألفينا الفلاسفة القدماء جانبا وعرجنا على فلاسفة العصر الحديث ألفينا أحد مفكريهم العظماء وهاهو كانت " يقول : إن الإرادة يجب أن تعمل الفضيلة طاعة للقانون الأخلاقى فحسب لأنه بلغ من العظمة إلى حد أن صار جديراً بأن ينفرد بالأمر والنهى دون غيره.

وأخيراً إننا نستطيع أن نؤكد فى ثقة واطمئنان أنه لم توجد على ظهر الأرض أمة محرومة من العناصر الأخلاقية الجوهرية مهما كان حظها من المدنية ضئيلا، وأما ما نشاهده من التناقض الأخلاقى بين الشعوب فمأتاه تباين درجات الأمم فى الاستنارة والجهل. وأن الأمة التى تنحرف عن أوامر القانون الأخلاقى تكون قد خضعت لصوت شهوة قاهرة أو منفعة جذابة، أو عرف خاطىء ، فإذا استنارت أصغت إلى صوت الضمير الذى لا ينفك يبشر بمواد القانون لأخلاقى بلا تباطؤ ولا انقطاع وأن أهم ما يجب على المستنير هو أن ينقذ أولئك الضعفاء الذين خضعوا للعوامل الدنيا ، وأن يفهمهم القوانين الأخلاقية ، كما يقتضى الذوق السليم.

ب- القانون السماوى

يؤكد الفلاسفة الإلهيون أن كل الفضائل والخيرات مستمدة من العلياء غير أن هذا الاستهداد يكون تارة بطريقة مباشرة وأخرى بواسطة تعاليم الأول تسمى القانون الأخلاقى . وأوامر الثانيه تدعى بالقانون السماوى لأن الوحى نزل بها على الأنبياء من السماء واليكم ما يقوله أنصار القانون السماوى عن الأخلاق .

من حيث أن الله هو الخالق الوحيد لهذه العوالم كلها ، ولا يوجد أعلم بها ولا أدرى بصلاحها أو بسعادتها منه" فمن الطبيعي المتفق مع المنطق أن يكون هو مشرعها الأوحد لأنه كما نظم الكون بالقوانين الطبيعية التى تضبطه كذلك متع الإنسان بالعقل الذى يستطيع قيادته، وأمل عليه بواسطة أنبيائه مارآه صالحا له من أنظمة وقوانين، وأمره أن يذعن لهذه الأنظمة الناشئة عن الحكمة الإلهية والتى هى ضرورة لحياته وتقدمه وإذن فالقانون السماوى ثابت وخالد، وهو عادل ورحيم وكذلك ، لأنه لا يكلف الإنسان إلا ما يستطيعه ، ولا يحظر عليه إلا ما يضره ، وهو

غير خاضع البتة للبيئات والأهواء والعرف والتقاليد وهو يصلح لأن يكون مقياسا مضبوطا للخير لأنه لا ينخدع ولا يضل .

القانون الوضعي

وهو مجموعة أوامر ونواه تضعها الحكومات بطريقة مباشرة أو غير مباشر لتحمى بها أفراد الأمة ومجموعاتها من الجور والتعدى، ولتصون بها النظام وتحقق السلام، وهو يمثل الرغبة عند الشعب كله والذى بسببه قد تنازل كل فرد من أفراد الأمة لهذا القانون الوضعى عن شئ من حريته وخضع له وسلمه ، زمامه، ولكنه فى مقابل ذلك قد وضع تحت حماية روحه وثروته وشرفه ، وليحفظها له من عبث العابثين واعتداء المعتدين، وإن كان لم يستمد قوته وسلطانه إلا من مجموعة هذه الأجزاء التى تتنازل له عنها أفراد الأمة من حريتهم لأنه قد استخلص مواده من تقاليد العرف وحاجات الهيئات الاجتماعية التى ينشأ فيها فإذا وضع على هذا الأساس، كان جديرا بالبقاء إلى أن تتغير حالة الأمة العمرانية وتصبح غير ملائمة لهذا القانون وحينذاك فقط يجب تغييره.

أما إذا خضع مشرعوه لأهواء خاصة أو لتأثيرات فردية كان هذا القانون مزعزع الأركان قصير الأجل.

وإذا فالقوانينُ الوضعية شخصية وخاصة ومعرضة للتغير والتبدل فى كل حين، وهى تتناقض أحيانا مع القانون الخلقى فى الحكم على الخير والشر لهذا نجدها غير صالحة للقياس .

جـ- الفروق بين هذه القوانين

كنا نحب أن نأتى على الفروق التى بين هذه القوانين الأربعة ، ولكن رأينا أن الذى يعنينا هنا هو ذكر الفروق التى بين القانون الأخلاقى والقانون الوضعى .

أما القانون الطبيعي، فهو يعنى دارس العلوم الطبيعية على اختلاف أنواعها أكثر مما يعنى دارس الأخلاق .

وإذا نقتصر الآن على ذكر الفروق التى بين القانون الاخلاقى والقانون الوضعى وهاكم هذه الفروق .

١- إن القانون الوضعى من عمل بنى الإنسان الخاضعين للبيئات والأهواء والمؤثرات المختلفة بعكس القانون الأخلاقى الذى هو من وضع الضمير .

٢- إن القانون الوضعى غير ثابت ، بل هو مضطرب متغير ، لان مشرعه قد يخطئ وقد يزيد عمله وتتسع مداركه وقد تتطور الأمة التى يشرع فيها وتصبح أرقى أو أحط من ذى قبل فيزول الإنسجام الذى كان بينها وبين هذا القانون، فيصبح غير صالح لها. أما لقانون الأخلاقى فلا يتغير، وإنما تتغير آراء الناس فيه وأحكامهم على نتائجه .

٣- القانون الوضعي يعاقب المتمرد ولا يثيب الطائع بعكس القانون الأخلاقى الذى كما يعاقب العاصى بالتأنيب أو الاحتقار يثيب المطيع بالرضي أو الاحترام .

٤- إن نتائج القانون الوضعى مادية أو محسوسة بعكس نتائج القانون الاخلاقى التى هى انفعالات فى داخل النفس وإن كانت أحيانا هذه الأنفعالات تسبب أمراضا أو صحة يظهر أثرها فى الخارج .

٥- إن القانون الوضعي يحتاج فى تنفيذه إلى قوة من البشر تحميه وتجعل لسلطانه مفعولا نافذا ، أما القانون الأخلاقى، فقوته التنفيذية هى الإرادة .

٦- إن القانون الوضعي لا يكلف الناس إلا بما هو ضرورى للنظام والحياة أما القانون الأخلاقى فيكلفهم بهذا وبالكماليات التى تسعد الإنسان .

٧- إن القانون الوضعى لا يطالبك بالتضحية لإسعاد الغير بعكس القانون الأخلاقى الذى يحتمها عليك.

٨- إن القانو الوضعى لا يسألك إلا عن نتائج عملك أو عن النية التى كان يخشى منها أن تحدث نتيجة بعكس القانون الأخلاقى الذى يحاسبك على مقاصدك ونواياك وإن لم يكن لها أى أثر فى الخارج.

ونحن قد رأينا بعد كل ما تقدم أن القوانين الوضعية لا تصلح مقياسا للخير والشر الأخلاقيين، لأنها من وضع الجمعيات البشرية المتأثرة بالعرف الخاضع للأهواء والبيئات الطبيعية الاجتماعية.

وإذا كنا قد أثبتنا أن العرف نفسه لا يصلح لأن يكون مقياسا، فأحرى بنا أن نصرح فى جلاء أن ما نشأ عنه وهو القانون الوضعي أقل صلاحية للقياس من منشئة وهو العرف.

وأما القانون السماوى: فقد أبنا فيما تقدم أنه أكثر القوانين صلاحية للقياس لثباته وخلود المنبع الذى نشأ منه غير أن الله جلت حكمته قد شاء أن يعصى كثير من الشعوب زمناً طويلا دون أن تتغلغل الديانات السماوية الظاهرة، لأصبحت الفضيلة فى هذه الأمم أثرا بعد" عين، ولترتب على ذلك أن يحرم بعض بنى الإنسان من إنسانيتهم التى لا يثبت وجودها إلا بثبوت الضمير، ومتى وجد هذا الضمير، فقد صح أن يكون مقياساً للخير والشر تلجأ إليه الأمم المنقطعة على تعاليم الوحى السماوى حيناً " وتهتدى بوساطته الأمم الكتابية إلى ماء جاء به الأنبياء من حقائق حينا آخر، لأن الإيمان المكتسب بنور البصيرة هو الإيمان الصحيح الموصل إلى النجاة كما يقول " بسكل" ، وإذا ، فالحاجة ماسة إلى الضمير فى كل الظروف ولدى جميع الأمم من غير استثناء ويقول فريق كبير من الفلاسفة الأخلاقيين: إن معيار الخير والشر العالى الذى لا ينخدع ولا يخضع لهوى، ولا لبيئة ولا لجو، هو ذلك الصوت الإلهى الأعلى الموجود فى داخل النفس الإنسانية ، والذى يسميه علماء الأخلاق بالضمير وهو الحكم الخالد المقتدر على تمييز الخير من الشر بهيئة لا ينل منها النقد ولا يرد

عليها الاعتراض، لأنه صوت تلك القوة الخفية والسر الغامض الذى قذف به البارى جل وعلا فى النفس البشرية فميزها به عن سائر الحيوانات التى تتفق معها فى الأكل والشرب والنوم وللذة والسعادة والموت هذه القوة التى حين ألقاها مبدع الكون فى النفس البشرية وضع الحجر الأساسى فى بناء صرح المثل الأعلى للإنسان وسلمه الحلقة الأولى من السلسلة الخالدة التى تربطه بالملأ الأعلى.

أما اختلاف مظاهر الخير والشر عند الناس مع وجود هذا الضمير فى داخل أنفسهم جميعاً، فمأتاه تأثر الإرادة بنورانية الروح تارة، وبكثافة الجسم تارة أخرى، فإذا كانت القيادة للأولى كانت النتيجة الصعود إلى المثل الأعلى، وإذا كانت الغلبة للثانية كان الهبوط إلى العجماوات هو المنتهى والمآل.

المبحث الثانى
الدين وقوة تأثيرة على النفوس

تمهيد:

١- هل الإنسان متدين بفطرته؟

٢- هل الشعوب التى لم يرسل الله إليها أنبياء فكرت من نفسها فى وجود الله؟

٣- لماذا لم يذر الله الناس على دياناتهم الوضعية التى ابتدعوها؟

٤- هل للدين تأثير فى إسعاد الإنسان وهنائه؟

٥- وهل له تأثير على أخلاقه وسلوكه؟

لنفرض أنفسنا نعيش فى قارة من القارات التى لم تسمع بالدين بخبر ولم تقف له على أثر ، أو سمعت عنه فى زمن مضى ثم نسيته تماما كأوربا أو كمصر قبل نزوح النبيين الجليلين يوسف وموسى عليهما السلام إلى أرضها ولنتحدث إليكم عن هذا الصنف من البشر.

أما البلاد التى نبتت فيها النبوات، فسنغض النظر وقتيا عن التكلم فى شأنها، لأن فرصة الحديث عنها لم تحن بعد.

رأى الناس فى سذاجة وبساطة أن فريقا عن حولهم يصح، وآخر يمرض، وثالثا يقوى، ورابعاً يضعف، وخامسا يغتنى وسادساً يفتقر وسابعاً يولد، وثامناً يموت، فحاولوا أن يعللوا هذه الظواهر المختلفة أو يردوها إلى أسباب معقولة، ولكنهم وقفوا حائرين عاجزين عن تعليل أية ظاهرة من ظواهر هذا الكون الهائلة المرعبة، وسرعان ما تدفق إلى قلوبهم الطاهرة، ثم إلى عقولهم الساذجة إيمان وثيق بأن هناك يداً خفية تحرك هذا الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها، وأن صاحب هذه اليد لابد أن يكون مقيما فى هذه القبة الزرقاء عند بعض الشعوب القاتمة أو الرمادية وعند البعض الآخر، والتى يبرز من أفقها كوكب الشمس المضئ حينا والقمر المنير والنجوم اللامعة حينا آخر، والتى تغضب أو يغضب ساكنها قليلا فى مصر، وكثيرا فى أوربا فتبرق وترعد، وتنذر وترعد، وترسل من الصواعق ناراً ومن وابل السيل مدراراً، غير أنهم لأمر ما قد تصوروا أن هذا المحرك الأكبر لابد أن يكون له ممثلون فى الأرض، وأنهم إذا أرادوا أن يجلبوا رضى هذا الإله أو يدفعوا سخطه، فلا بدلهم من أن يفتشوا عن هؤلاء الممثلين جهد طاقتهم حتى إذا عثروا عليهم قدموا إليهم الضحايا والقرابين وقاموا بين أديهم بأكبر قسط ممكن الإحترام والإجلال.

ثم أخذ كل شعب يبحث عن هؤلاء الممثلين الذين يقربون إلى الله زلفى، ولكن هذا البحث لم يهد أصحابه إلى نتيجة واحدة، وهذا أمر طبيعى ما دامت هذه الشعوب مختلفة فى طبائعها وأجوائها ومواقع بلادهم الجغرافية التى لها على الثقافة والتفكير أثر عظيم، فاقتنع المصريون مثلا بأن ممثل المحرك الأول لهذه الكائنات هو كوكب الشمس، لما رأوه فيه من فائدة ونفع للانسان والحيوان والنبات، وما تصوروه عليه من بطش بجيوش الظلام الشريرة السوداء التى لا تسيطر على العالم ألا حين ينام هذا الممثل الجليل، فإذا استيقظ من نومه وصرخ صرخة عالية تفرقت شذرا مذراً،

ومزقت كتائبها كل ممزق ومرت إلى أعمق طبقات الجحيم حيث تقضى هناك النهار، أما هو ، فإنه يختال فى السماء معجباً فى دل وتيه بما سكبة على الكون من عناصر الحية والنور والإنتعاش.

ولما كانت الشمس هى أكبر الظواهر الطبيعية فى مصر، فقد أسندوا قيادتها إلى " رع" كبير آلهة المصريين فى أيام التعلد ، كما أن اليونان قد أسندوا ذلك إلى " زوس" كبير الهتهم قيادة الرعد والبرق والمطر ، لأن هذه الأشياء هى أكبر الظواهر الطبيعية فى جو أوربا الممتلئ بالسحب والغيوم

ولقد رأى المجوس أن النار هى وحدها الجديرة بتمثيل الكائن الأول، لما فيها من نعمة الإنضاج وقوة الإحراق.

وأمن غير هؤلاء بأن الممثل الأعلى هو نيل أو بقرة أو غير ذلك، فنجد كل شعب لما اعتقد أنه الممثل الأكبر لهذا الموجد العظيم.

وكما اختلفت هذه الشعوب فى تصور ممثل المحرك الأول، اختلفت أيضاً فى مصير الروح والخلود والعقاب والثواب فى الحية الأخرى، ونشأ من هذا الاختلاف تباين عظيم فى الطقوس الدينية ، وفيما ينبغى أن يصنع بالجسم بعد الموت لتخلد الروح فى النعيم المقيم.

ولا ريب أن هذا الإختلاف وذلك التناقض هو أول الحكم التى من أجلها جاءت الديانات السماوية، لتقضى على هذه الفوضى وذلك الإضراب الناشيئن من تناقض تلك الشعوب فى العقائد والطقوس، ذلك التناقض الخاضع للبيئات والأجواء والمواقع الجغرافية ولأهواء الزعماء الدينيين الذين نشأوا فى الشعوب القديمة فأسروا الناس بلباقتهم وبلاغتهم وأخضعوهم ببيانهم لما زعموا أنه الحق المبين ، والنهج القويم فرأى مبدع الكون أن يضع حدا لهذه الهمجية فأعلن على السنة أنبيائه أن الشعوب لا تملك أن تضع قوانين هذه الديانات ، وأنه لا يمكن أن يكون لهذه العقائد إلا مصدر واحد وهو السماء.

وهنا حدثت الإنقلابات الهائلة التى لا يتسع المقام الآن لذكرها والتى سنفصلها إن شاء الله فى فرصة أخرى حين نتناول تاريخ الديانات من أول عصورها الإنسانية إلى العصر الحاضر.

ونعرض فى شئ من الإسهاب إلى زعماء الديانات الوضعية، وإبطال الديانات السماوية.

ولقد بدأ مبدع الكون باليهودية ثم ثنى بالمسيحية ثم إختتمها بالإسلام لحكمة واضحة لا يستعصى فهمها على من درس تاريخ الديانات وأحاط علماً بعقليات أخلاق وطباع البيئات التى نشأت فيها هذه الديانات الثلاث ودرس فى تمعن وإتقان كيف تدرجت تشريعاتها، وترقت نواميسها حسب تدرج العصور، وترقى الحلقة الإنسانية.

ومهما تكن الديانات الوثنية مشحونة بالأخطاء والضلالات ، مفعمة بالأكاذيب والأباطيل فإن النزاهة تحتم علينا أن نعلن فى صراحة أن هذه الديانات قد خفضت من الجرائم ، وقللت من الشرور والآثام، وكسرت ولو بعض الشئ- من حدة الشهوات الإنسانية.

ولو لم يشأ الله لتلك الديانات الوثنية أن تأخذ مكانها تحت الشمس، لكانت الجرائم والشرور أضعاف ما كانت عليه، ولقاس الأنبياء عليهم السلام فى إفهام البشر أساليب التدين والإذعان أضعاف ما قاسوا بعد أن مهدت لهم تلك الديانات سبل القيام بمهمتهم على الوجه الأكمل من المراد حتى تحقق لهم نشر الدين الإلهى.

وهناك فضل آخر يجب أن نعترف به للديانات الوثنية، وهو إسعاد البشر وهناؤهم بسبب ذلك الأمل الذى أرسته فى نفوسهم ولو عن طريق الخيال بأنهم سيستمتعون فى عالم الخلود بنعيم لا ينتهى ولا يبيد فملأ هذا الأمل حياة الإنسانية سروراً و غبطة، وأحل العذاب والشقاء فى نظر المعذبين والأشقياء إلى سعادة نفسية لذيذة ما دام سيعقبها تنعم دائم وسرورا خلود

وبعد هذا ، فليس للديانات الوثنية أثر يذكر إلا من الناحية التاريخية حيث تضع بين أيدينا نماذج من عقليات القدماء وصوراً من تفكيراتهم وإدراكاتهم وتبين لنا ما بين الديانات السماوية وبين هذه الديانات من فروق ودرجات.

الآن وبعد أن أبنا مقدار تأثير الديانات الوضعية على الأمم القديمة فقد وجب علينا أن نبين أثر الديانات السماوية فى الأمم التى أعتنقتها فإذا فرغنا من ذلك أتينا على آراء المحدثين من فلاسفة أوربا الذين يرون استقلال الأخلاق عن الدين ويزعمون أن الأمم تستطيع الأستغناء عن قيادة الديانات وإليكم ما يقوله أنصار فكرة إمتزاج الدين بالأخلاق.

أنصار فكرة امتزاج الأخلاق بالدين:

نحن نعلم جميعاً أن أسس الأخلاق الدينية مرتكزة على الوحى الإلهى إلى الأنبياء عليهم السلام ونعلم أن الله أوحى إليهم سبحانه أصل الخيرات والمعارف، وأنبأهم بالعنصر الذى خلقهم منه وبطبيعتهم التى كانوا يجهلونها، وبمصيرهم العام وبواجبهم الذى لا ينبغى أن لا يحيدوا عنه قيد أنملة لو أنهم ساروا على النسق الذى يحبه لهم، وأوحى إليهم كذلك أن عقل الإنسان ضعيف ومحدود وأنه فى حاجة إلى المرشد الأعلى ليهديه إلى سواء السبيل، وأن مصلحته الخاصة تقضى عليه بأن يطيع ربه مقتنعاً بأنه تعالى لا يأمر إلا بالخير ولا يحض إلا على الفضيلة، وأن هذه الحية الدنيا ليست إلا قنطرة يعبر عليها الإنسان إلى الحية الخالدة وأن حظه لا ينتهى عند هذا الأجل الدنيوى القصير بل سيتصل بما قدر له فى العالم الآخر الذى سيلاقى فيه جزاء عمله إن كان خيراً فخيرا وإن كان شراً فشرا.

وتمتاز الأخلاق الدينية بأنها مؤسسة على حب الله ، وإطاعة كل أوامره ثم على حب المؤمنين إلى حد تعلقهم بالنص وجعلها واحدة بالنفس ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"

ولا ريب أنه إذا أحب الإنسان خالقه وأطاع أوامره، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه، فقد وصل إلى ارقى درجات الكمال .

هناك فضل آخر سكبه نور الأخلاق الدينية على بنى الإنسان، هو أنه ربط وجدانهم وضمائرهم بالعروة الوثقى التى لا تنفصم ولا تنحل وهى عروة الإيمان .

أما من الناحية العلمية البحتة ، فإن الخلقية الدينية هى وحدها الحقيقة العليا المطلقة، وأما ما عداها فهى حقائق نسبية تتصل بتلك الحقيقة الأبدية من قريب أو من بعيد.

وأما أولئك الذين يزعمون أن الدين والعلم متعاديان. فهم واهمون أو سطحيون، لأن العقل - وهو الموئل الأعلى للعلم - لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين .

وإذا فينبغي أن يمتزج الدين بكل أفكار الإنسان وأعماله فى هذه الحية لأن موضوع الأخلاق هو دراسة صلات بنى الإنسان بعضهم ببعض ولا يمكن أن ينظم هذه الصلات تنظيما محكما غير البارئ الأعلى فى قانونه الخالد وهو الدين، ولأن الإنسان نحو أسرته ومواطنيه ونحو أفراد الإنسانية جميعا منبثق من منبع واحد وهو واجب الإنسان نحو ربه . "ومن اتقى الله إتقى الناس" .

والواقع المحسوس الذى نشاهده كلنا أن فى الحية الدنيا وأن الإنسان ضعيف وعاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية، وأنه فى أشد الحاجة إلى معونة صوت الإيمان ليقوده فى هذه الظلمة المخيفة التى تحوطه من جانبه وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه، إذ من ذا الذى يستطيع كل شئ ؟ ثم أى جزاء هو أكثر رهبة فى نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حية طويلة يعرف مداها ولا يعرف منتهاها؟ وأى عزاء يسلى عن أحزان الحية وآلامها أعلى من التفكير فى عدالة الله ، التى ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب.

هذا كله بالنسبة إلى أثر الدين على الفرد، وأما أثره على الجماعات فهو لا يقل أهمية عما تقدم، إذ من ذا الذى يستطيع أن يفهمنا احترام الأنظمة المقررة ومعنى الفضيلة العالية والإذعان للسلطان الشرعية، ويعودنا على الصبر واحتمال الآلام وتخفيف وقع منظر الفروق الهائلة بين شقائنا وسعادة غيرنا على نفوسنا أكثر من الدين ؟ .

وفى الحق أن حكومة تشعر بأن عليها واجبا تؤديه لأفراد الشعب لا تستطيع أن تؤسس تعاليمها الأخلاقية منفصلة عن الدين، بل يجب عليها أن تشركه على الأقل فى تأسيس هذه الأخلاق إن لم تعتمد اعتمادا كليا عليه، وأن تفسح له مكانا عظيما فى مدارسها ومعاهدها ومنتدياتها، وليستطيع أن يؤدى مهمته فى تهذيب النفوس كما ينبغى، لأننا جميعا نعمل على صيانة القوانين الوضعية ونسهر على احترامها وحفظها من عبث العابثين بل إنها تصل من نفوسنا أحيانا إلى مرتبة الإجلال والتقديس، فإذا دوت فى المكان هذه الجملة: باسم القانون اعمل كذا" عند ذلك تخفق القلوب، وتبلغ النفوس ، وتسود مجلس القانون الرهبة ويخيم عليه السكون.

ولاريب أننا لم نخلع على القانون هذه القواعد إلا لأنه يقر الأمن ويصون الحقوق وينشر الإسلام والاطمئنان، ولكن من يدقق النظر فى أحوال الأمم وظواهرها الاجتماعية. وخصائصها النفسية يتضح له تمام الاتضاح أن الممتنعين عن الجرائم منهم عشرة فى المائة متأثرون بالأخلاق فى ذاتها وعشرون يخشون القانون وسبعون يتجنبون الرذائل إتقاء الله وخوفاً من عقابه الذى هم به موقنون بأنه أشد وأقسى وأطول مدى من عقوبات القوانين الوضعية، فإذا كان الدين قد نال من النفوس البشرية هذا المنال لم يعز القانون بنصفه ولا بثلثه، فيجب علينا كمواطنين مخلصين لبلادنا راغبين فى صلاح أحوالها الاجتماعية أن ننمى فى نفوس الجماهير هذه العقيدة النبيلة مادام له على أخلاقهم هذا الأثر الجميل .

أ- المبحث الأول

الحكم الخلقى

معناه : نؤثر الا نعرف الحكم الخلقي إلا بعد أن نفهم معناه من خلال ما يتجلى فيه من التطبيقات فمثلا عندما أبدأ المحاضرة وأسير فيها وأجد جميع الطلبة مقلبين على الاستماع والفهم، وحب الإفادة فإنى أجد فى نفسى سروراً وأحس برضي وسعادة وسرعان ما أصدر عليهم حكما بأنهم طلاب منظمون عقلاء ذو أخلاق كريمة .

أما عندما أجد أحدهم شاذ السلوك مخالف للنظام مضيعا للوقت سرعان ما أشعر بألم فى نفسي وأصدر حكما بأن هذا الطالب محب للفوضي منحرف عن الصراط السوى هذا الحكم الذى أصدرته يسمى حكماً خلقيا. وعلى ذلك نقول فى تعريف الحكم الخلقى .

هو تقدير العمل الخلقى على أساس ما ألفته ضمائرنا من مبادئ الأخلاق وقواعدها .

وكما يكون الحكم من الإنسان على غيره يكون كذلك أحيانا على نفسه كمن يسرع إلى فعل ثم يراجع فيه نفسه ليحكم عليه، إما بالخيرية أو الشرية.

ولما كان الحكم الخلقي تقديرا للعمل تبعاً لخيريته وشريته كان من المحل أن نصدر حكما خلقيا على عمل المجنون، والطفل غير المميز. والحيوان الأعجم، لأن أعمل هؤلاء خالية من الخيرية والشرية لأنها خالية من القصد والإرادة ولا مؤاخذة عليها ولا قيمة لها .

علام يصدر الحكم الخلقى :

أيصدر الحكم الخلقى على أعمل الناس تبعاً لمقاصدهم ونياتهم أم تبعا للعمل ونتيجته أم للنتيجة والنية مقرونة بالعمل ؟

ولكن يذهب جمهرة الفلاسفة الأخلاقيين إلى أن النوايا هى مناط الحكم الخلقى، فمتى حسنت النية، وكان القصد خيراً، وكان العمل خيرا مهما كانت نتيجته فلو أنى أعطيت مسكينا مبلغا من المال لكى يصلح به حاله فاشترى به سلاحا وقتل به عدوه، كان عملى خيرا لأنى نويت خيرا ولا علم لى بمكنونات الصدور، وهذا الأجل هو المقرر عندنا فى الإسلام لقوله تعالى " ولكن يؤاخذ كم بما كسبت قلوبكم "[4]. وفى الحديث الصحيح (إنما الأعمل بالنيات وإنما لكل أمرئ مانوى)[5].

وقد قالوا إن هذا الأصل قد يجر إلى مفاسد كثيرة فقد يدعى كثير من الناس حسن النية فى أبشع الجرائم دون أن تقدر على كشف ما فى قلبه . والجواب أن هذا هو الحق المقرر فى الواقع، وأمام الله وعلى ما يظهر لنا من النوايا أما عندما يحاول مجرم إخفاء نواياه فإن هناك القرائن والأدلة التى يحسن رجل القانون طرق استخراجها بدقة ومهارة لإقرار الحق.

إن قاعدة الحكم الخلقى على أساس النية هى أعدل وأوثق قاعدة يمكن أن تسير عليها الإنسانية عند أصحاب هذا الرأى. إن كل ما يلزم لدرأ ما قد يكون وراء هذه القاعدة من مفاسد هو ألا تصدق مبدئيا كل من يدعى حسن النية وأن نبحث دائما عن ما قد يكون هناك من دوافع العمل ومقاصده وعن القرائن والشواهد والأدلة التى توصلنا إلى الحق.

ويرى فريق آخر أن الحكم الخلقي يجب أن لا يصدر إلا على نتيجة العمل وحدها فإن أنتج العمل شرا كان فاعله شريرا أو خيرا كان فاعله خيراً.

ومعنى هذا أن الطبيب إذا اجتهد فى علاج مريضه جهد طاقته ثم كانت النتيجة موت المريض كان عمل الطبيب شرا، وكذلك يكون عمل الخضر عليه السلام حين خرق السفينة شرا لأنه عابها ولن تنفعه نيته، إذ

---

(4) سورة البقرة، ٢٢٥.
(5) متفق عليه .

كان ينوى إنقاذها من الضياع، وكذلك يكون قتل المسلمين الأسرى إذا تترس بهم الكفار فى الحرب.

وهكذا يظهر لنا أن هذا المذهب جاف ومتشدد ومجاف لخير الإنسانية. وكيف نأخذ بمذهب كهذا مع أن القاعدة أن المجتهد المخطئ له أجر، والمصيب له أجران، إن أقل عيوب هذا المذهب، أنه سيجعل المجتهد يتردد ألف مرة قبل أن يعمل العمل.

الحكم الخلقى كيفية المذهب الحق فى صدوره، نرى أنه يصدر على النية والعمل معا حتى يتحقق العدل فى الأحكام الخلقية من حيث نتيجة العمل ونية الإنسان ومقصده فى الخير والشر معا.

كيف نشأ الحكم الخلقى وكيف تطور.

يعتقد المتدينون بالأديان الصحيحة أن الإنسانية مفطورة على فكرة الميل إلى الخير وكراهية الشر منذ أدرك آدم ذنبه وتاب منه، ومنذ قال هابيل لقابيل (لئن بسطت يدك إلى لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) ويذهب فريق التطوريين الماديين من التابعين لوجهة نظر دارون إلى أن الإنسانية فى الأصل لم تكن تعرف عن الشر والخير أى فكرة وكان القوى يقتل الضعيف على ملأ من الناس فلا يرون فى عمله سوى ممارسة حقه الطبيعى فى قتل ما هو أضعف منه كما لو كان يمارس حقه فى إزالة حجر من طريقه ، فلما كثرت الآلام وأحس الناس بأنهم عرضة لما يقع على غيرهم من هنا بدأ وعيهم يقوى ويكرهون منظر الجرائم وفاعليها، ويعتبرون كل ما يجلب الآلام لهم ولغيرهم شراً، وكذلك كانوا يحبون الملذات ويحبون من ييسرها لهم ويعتبرون عمل القوى لمساعدة الضعيف خيرا ويحكمون له بأنه رجل خير. ويعتبرون عمل من يقتل أو يقطع الطريق أو من يهين أباه أو أمه شرا. ويحكمون على من يعمل ذلك بأنه شرير، ثم ترقى الحكم الخلقى فأصبح الناس يسمون الخير خيرا لذاته، والشر شرا لذاته من غير نظر إلى لذة أو إلى ألم لأنه بطول المدة والمران

تناسوا ما كانوا يعللون به خيرية الخير وشرية الشر ، وصاروا يحكمون على الإنسان بأنه خير وعلى الآخر بأنه شرير تبعا لما استقر فى ضمائرهم من معانى الخير والشر.

ومن أجل ذلك أن الناس فى البدء ما كانوا يحبون الدنانير إلا لأنها تيسر لهم اللذات. فلما طال الزمن نسواعلة حبها وأصبحوا يحبونها لذاتها.

ونحن نرى أن مذهب التطوريين التجريبيين مذهب الحادى مرفوض.

وإن إنكارهم فطرية الضمير وإدعائهم أنه أمر مكتسب بالتجارب. ومثله هنا الحكم الخلقى إنما هو غرور أصابهم لافراطهم فى حب الظهور بمظهر التحقيق والتدقيق العلمى معا.

(ب) المبحث الثانى

١- الأخلاق المسيحية:

لم تكد الديانة المسيحية تضع قدميها على أرض أوربا حتى قلبت الحية العقلية رأسا على عقب، وأعلنت ضد الفلسفة والأخلاق اليونانيتين حربا شعواء لم يكن للفلسفة بد بعد إعلانها من أحد أمرين إما أن تقاوم الدين حتى لا تندثر وتصبح أثرا بعد عين ، وإما أن تذعن لهذا السلطان القوى الجديد وتنزل على إرادته فتعيش معه، ولكن فى شئ من الذلة والمهانة ، وأخيراً فضلت الحل الثانى ورضيت بالمنزلة التى منحتها المسيحية إياها . وهى أن يقتصر علمها على تفسير مظاهر الكون الخارجية بما لا يختلف مع الوحي المسيحى فى شئ، وأرغمتها على فراق وليدها العزيزين: الأخلاق وما وراء الطبيعة، إذ أعلنت هذه الديانه الناشئة أنها هى وحدها الكفيلة بنشر التعاليم الصحيحة للأخلاق، لأنها تتلقاها من الوحى بطريقة مباشرة لا تستطيع أن تستولى عليها أهواء الفلاسفة الذين لم يخرجوا عن كونهم من بنى البشر المحرومين من العصمة، المعرضين للضلال وفى هذا الحين لم تعد الأخلاق قسماً من الفلسفة مؤسساً على النظريات العلمية، ولم يعد الذكاء الإنسانى هو النقطة الأساسية التى تبتدئ منها

الأخلاق ، كما كانت الحال عند اليونان، بل أصبح هو الوحى المسيحى ولم تصبح نظرياتها مرتكزة على تفكيرات منطقية مؤيدة بالحجة والبرهان، وإنما أضحت مؤسسة على العاطفية والمحبة، ولذلك فقد عرف هذا القسم من الأخلاق : بالأخلاق العاطفية.

أما الخير المطلق فى نظر الأخلاقيين المسيحيين فلا يمكن أن يتحقق كله على هذه الأرض، وإنما يجبون أن ينل الإنسان شيئاً منه فى هذه الحياة، ولكنه شئ ضئيل إلى جانب ما يوجد فى الحياة الأخرى، وبدل أن كانت الحكمة عند القدماء هى الخير الأعلى أصبح الإحسان وحب الله هما أجل الفضائل وأرقاها، بل هى الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى نيل الخير المطلق والسعادة الكاملة غير أن الإحسان وحب الإنسانية المسيحية يختلفان عنهما عند الإستوئبسيين ، لأن الإستوتبسيين كانوا يحبون الإنسانية للإنسانية، أما المسيحيون فهم كانوا يحتقرون الإنسان ويرون أنه مدنس، لا يستحق المحبة. ولكنهم يحبونه ، لأن الله يحبه ويعطف عليه وليس حبهم إياه إلا انعكاساً لذلك الحب الإلهى.

وقد حل الإيمان المؤسس على العاطفة القلبية محل العلم المدعم بالحجج المنطقية. وصارت مهمة الأخلاق هى تكوين قديسين بعد ان كانت تكوين حكماء وفلاسفة، وعلى الجملة ، فإن أكبر الفضائل عندهم هى الإيمان بالله والإحسان وحب الإنسانية والأمل الكامل فى الحياة الأخرى، وهذه الفضائل عندهم مجتمعة هى التى تنشئ القديسين المقربين من الله ولكنها ليست من عمل بنى الإنسان . وإنما هى من صنع الخالق. وهذه النقطة تعد فى تاريخ العقلية الإنسانية عقبة كبرى أمام الحرية البشرية أو أمام منحة الكسب والاختيار التى خص الله بها الإنسان ، ولما انتشرت فكرة التأمل[1] بين المتدينين كان من نتائجها أن أيقن العلماء المسيحيون عن طريق الإدراك لاعن طريق العاطفة أن هناك روحاً خفية تقود هذا

(1) التأمل هو شعيرة مسيحية تقضى على المتدينين بالتفكير فى أسرار آيات الإنجيل وأعمال المسيح وخفايا الكون وهلم جرا.

الجسم المادى وهى من عنصر أعلى من عنصره وقد دفعتهم هذه الشعيرة أيضاً إلى التفكير فى الوجدان والى تحليل بعض المسائل الأخلاقية، فخرجوا من ذلك بقاعدة وضعوها للأخلاق وهى: أن النية هى أساس كل شئ وأنها وحدها كافية فى تسجيل الخير والشر على صاحبها، أما العمل فى ذاته، وأما النتيجة فلا قيمة لكل منها وحدها البتة، وعندهم أن النفس تشتمل على حبة بيضاء لا تستطيع كل جرائم الإنسانية أن تغير جوهرها، ولكنها تنصب بينها وبين العقل حاجزاً كثيفاً يحول دون وصول نورها إليه، أما التصوف عندهم فمنشؤه شعيرة التأمل أولا وتقديم العاطفة على العقل ثانياً.

الأخلاق الإسلامية:

نقول حين نزل القرآن الكريم على النبى ﷺ ، كانت الحية الأخلاقية والإحتماعية عند العرب منحلة إنحلالا لا يمكن معه لأى أمة من الأمم أن تسير إلى الأمام فرأى البارئ جلت إرادته أنه من الحكمة أن يفسح فى الشريعة الإسلامية مكانا عظيما للأخلاق وتمجيد الفضائل، والحط من شأن الرذائل بكل الوسائل الممكنة، واستعمل لذلك أحكم أساليب الترغيب والترهيب الذين هما ضروريان للجماهير وليست الأخلاق الإسلامية- كما يزعم بعض أخلاقى أوربا- مؤسسة على التجارة والنفعية الموجودتين فى الجنة التى ألح عليها القرآن ووصفها كثيرا واتخذها وسيلة لنشر الفضيلة وإلا فماذا يقولون فى تلك الحكمة المحمدية الغالية " نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، أو فى تلك الجملة المنسوبة إلى الإمام أبى حنفية ﷺ اللهم أشهد أن لا أعبدك رهبة من نارك ولا رغبة فى جنتك ، وإنما حباً فى رضاك عنى " وطمعا فى تقريبى إلى نورك الأعلى.

وإذا فالأخلاق الإسلامية مؤسسة على ﷺ والقرب منه لأنها دليله قبل كل شئ، ولكن الإسلام قد بدأ مهمته الأخلاقية بالتبشير للفضيلة العملية لأن البيئة التى نشأ فيها هذا الدين لم تكن تحتمل أكثر من ذلك

النموذج الذى رسمه القرآن الكريم وسارت عليه السنة الغراء ، ولما تقدمت الأمة العربية بسبب تعاليم الإسلام من ناحية، وبسبب استفادتها من منتجات العقليات الأجنبية من ناحية أخرى وترجمة الفلسفة والأخلاق اليونانية إلى اللغة العربية.

ومن هنا هب فلاسفة العرب الفضلاء منهم الإمام الغزالى، والفارابي وابن مسكويه يؤلفون فى علم الأخلاق مازجين تلك الفضائل السقراطية والأفلاطونية والصالح من الرواقية بما أتى به الإسلام من فضائل وأخلاق معتدلة مستقيمة تسلم قيادة الإنسان إلى روحه ولكنها لا تحتقر جله ولا تأمر بتعذيبه، وبهذه الطريقة استطاع فلاسفة العرب أن يكونوا من هذا المزيج كتلة أخلاقية صالحة مفيدة .

ولما كان الإسلام فى جوهره دين قوة واجتماع وعمل ومجاهدة فى هذا الحية ومعترف بالمادة كعنصر هام فى تكوين الإنسان فقد ركز أخلاقه على أساس صلاح الحية الإجتماعية، للأمة، كان فلاسفة الإسلام فى كتاباتهم عن أخلاق أرسطو طاليس أكثر منهم أفلاطونيين، لأن أرسطو يتفق فى نظرته إلى الحية مع روح الإسلام أكثر من " أفلاطون وإن أصدق مثل لذلك هو كتب الإمام الغزالى التى أفعمت بالنظريات القيمة فى الأخلاق والاجتماع والتربية العملية.

وليس صحيحاً ما يزعمه بعض المتحاملين على الفضيلة الإسلامية فى أن فلاسفة العرب لم يكونوا إلا تراجمة للفلسفة اليونانية لا أكثر ولا أقل، لأن العرب قد صبغوا هذه الفلسفة بالروح الإسلامية البحتة حتى أعطوها صورة أخرى غير صورتها التى كانت عليها فى بلاد الإغريق .

أما الخير فى نظر الأخلاق الإسلامية فهو - كما فى الديانة المسيحية - يتحقق فى رضى الله والقرب منه، وأما ذلك التصوف المغالى الذى ظهر فى بعض العصور الإسلامية فلا يمكن أن يعتبر ترجمانا لروح دين يقول الله تعالى " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ)[٧] وأيضا قوله تعالى : وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[٨] ويقول فى حديثه القدسى: يا عبدى حرك يدك أنزل عليك الرزق "، أما الفضائل عند الإسلام فهى متماسكه متضافرة كما هى عند " سقراط " و"أفلاطون " وتعويد النفس على اعتناقها ومن ثم فهى ترفع الإنسان عن صفوف الحيوانات وأيضا تقربه من الملأ الأعلى للوصول إلى ربه فيحظى بقربه وأنسه وينال السعادة فى الدراين .

٢- الأخلاق الإسلامية وتطوراتها:

عرفت الأخلاق الإسلامية لفجر الإسلام فى صدره تدوى عالية يتلقاها المسلمون بعضهم عن بعض ويرجعون فيها وفى كل ما أشكل منها إلى مرجعهم الأكبر خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة الحسنة .

ولم تك هذه التعاليم الخالدة ترتكز يوماً على حذلقات الفلسفة اليونانية وهى أكبر تراث ثقافى عالمى، وأضخم حصاد فكرى تجمع لذلك الزمان " لا لأن التوسع الفكرى مع ما يشوبه من مساوى وظنون وأوهام وسقطات يعتبر شيئا جديرا بالاحتقار والنبذ فما كان الفكر يوما أهلا لذلك ، ولا كان الإسلام فى ذاته بالذى يعادى الفكر ويحاده بل عن الرسالة العظمى لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تكن تجهل قيمة الوقت الذى يتحتم الحرص عليه وإنفاقه فيما هو أجدى لرسم علائم أوضح فى زمن أقصد لخير الإنسانية.

من أجل ذلك جاءت تعاليمها أقرب إلى الفكرة وأبعد عن الحذلقات السوفطائية المليئه بالجدل المتصنع والفيهقة المتعملة والمباهات

---

(٧) الأعراف، ٣٢.
(٨) التوبة، ١٠٥.

المكشوفة داعية إلى الفكر السليم وحب العلم الدءوب وراءه فى كل ما هو خير للوجود الإنسانى .

ولما قضى الله وأذنت حتمية التاريخ وقوانين الوجود بإنتهاء الصدر الأول للإسلام ورأى المجتمع بأن يتوسع فى فكره وعقائده ويعطى العالم حقه من الاعتبار والاهتمام نشأ علم الكلام كفلسفة أصيلة إسلامية فى دائرة محدودة تستمد من فصول الكتاب والسنة ما تحتاج إليه من القواعد الضرورية لمواجهة الحياة فى المجتمع .

ولما اتسع النفوذ الإسلامى ودخلت أمم أخرى فى حكم الإسلام ودخلت الفلسفة اليونانية المجتمع الإسلامي واتسعت دائرة الفكر فى كل مجال فى الأخلاق والعقائد الطبيعية وما بعد الطبيعة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيره من ألوان الفكر .

وأما فى الأخلاق على الخصوص فإن جموع حصاد الفكر الإسلامى أن يبرز أمام أنظارنا فى عدد الصور والإتجاهات .

١- الاتجاه الإسلامى مع ميل إلى الأسلوب الفلسفى لا يكاد يظهر كما نرى فى صنيع الغزالى .

٢- الاتجاه الإسلامى المعتمد على الفلسفة اليونانية كما فى صنيع إبن مسكويه وابن سيناء وغيرهما

٣- الإتجاه الإسلامى الخاص كما نرى فى صنيع الماوردى فى كتابه "أدب الدنيا والدين " .

٤- الاتجاه الإلحادي والإنحلالى اللاانتمائى المتحرر كما فى صنيع جماعة إخوان الصفاء فى العصر العباسي ومعنى الانتمائى الذى لا ينتمى إلى دين خاص أو إلى وطن خاص .

المبحث الثالث

السعادة البشرية

لكل مخلوق من المخلوقات غاية وهدف أعده الله تعالى له يسعى إلى تحقيقه وبلوغ ذلك الهدف.

تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلا ولن تجد لسنته تحويلا وهذا الهدف يظهر بوضوح وفى جلاء تام عند الإنسان المخلوق المكلف بالطاعة لخالقه وتحقيق الغاية من هذا الخلق وهو العبادة والامتثال لربه وهو عند تنفيذ ذلك يشعر بشعور داخلى يحقق له الرضا والاطمئنان وهو ما يطلق عليه كلمة السعادة عند ظهور ذلك على الإنسان وهو ما يصدر عنه من أفعال بحسب الروية والتميز وعلى ما يقتضيه العقل الذى امتاز به عن بقية المخلوقات وعلى ذلك فالسعادة موجودة عند الإنسان المهتدى بنور الإيمان العامل بالكتاب والسنة وهى تتحقق لكل فرد من أفراد المجتمع الإنسانى فلا يختص بها أحد دون أحد آخر من حيث أنه بشر مخلوق سوى.

ولكن هذه السعادة ليست متساوية عند جميع الإفراد بل تختلف فى الأفراد مرتبة ودرجة ذلك حسب شعورهم الحسن ومقدرتهم على تحصيل الفضائل وممارستها بصفة مستمرة والبعد عن الرزائل ومحاربتها دائما فإن السعادة فى البشرية مختلفة ولهذا يقل : إن هذا الإنسان أكثر إنسانية من هذا.

وابن مسكويه يرى أن من سقط من هذه الرتبة لا ينبغى أن يسمى إنسانا إلا على طريق التشبيه، كما يسمى المصور صورة الإنسان إنسانا له لمشابهته فى التخطيط فحسب.

هذا القدر المشترك بين جميع الأفراد هو أول مرتبة من مراتب السعادة القريبة إن رتبناها ترتيبا تصاعديا، آخرها إن رتبناها ترتيبا تنازليا وبين أول مرتبة وأخر مرتبة – وأيضا يقول ابن مسكويه: (وهذا المعنى

موهوب للناس عامة بالفطرة والجبلة الأولى ويتفاضلون بحسب استعمالهم إياه)[٩].

سعادة الفرد:

أما السعادة الخاصة بكل واحد من أفراد الإنسان التى يختص بها صاحب علم أو صناعة فاضلة، ويتفاوت أفراد الإنسانية حسب تفاوتهم فى العلوم والمعارف والصناعات، وأيضا بحسب الأحوال التى يصدرون فيها أفعالهم، على ما يوجه ويحتمه عليهم الرأى العام والتمييز بين الخير والشر فمما لا شك فيه أن سعادة الغنى الموسر والفقير وإن اختلفتا بحسب الأحوال فهما متفقتان فى ترتيب الأفعل فالموسر مثلا يرى أن سعادته فى أن يستعمل الملل حيث يجب وأيضا كما يجب وعند من يجب ، وأما الفقير فهو يرى أن سعادته تتمثل فى الصبر على فقره، ويتحمل المخمصة وشدة الفاقة- وهو راض ولكن على الوجه الذى ينبغي والحل التى تنبغى، وعند من ينبغى.

وكذلك عندما ننظر لعادات أصحاب العلوم والصناعات فإنهم وإن رتبوا أفعالهم على اختلاف سعادتهم لاختلاف موضوعاتهم التى ينظرون إليها، فسعادة الطبيب مثلا الماهر ليست كسعادة من هو أقل منه وأيضا ليست مثل سعادة الكاتب الحاذق وسعادة العالم بفنون كثيرة ليست مثل سعادة العالم بفن واحد، ومن أجل ذلك نرى أن لكل واحد من هؤلاء أفعالا تخصه من حيث هو إنسان وأفعالا أخرى من حيث هو صاحب علم ما وصناعة ولا يمكن أن تحصل له السعادة الخاصة به إلا بعد أن تحصل له السعادة العامة له ولغيره وهو معنى تحقيق السعادة الإنسانية ويحقق فيها إنسانيته المكرمة.

---

٩ - كتاب السعادة ص ٣٧.

اختلاف السعادة وحكمة الشرع فى ذلك :

فى الواقع إن الشرع جاء يصحح للبشر عقائدهم ويجعلهم فى سعادة ولكونهم فى اختلاف من حيث الطباع والمزاج لذا راع الشرع ذلك، وفى ذلك يقول ابن مسكويه محاولا ربط سعادات الناس وبين الشريعة وأحكامها وتكاليفها فيقول (ولولا أن السعادة كثيرة وعلى ضروب لكان السعيد فى الحقيقة واحداً من الناس وهو من حصل جميع أجزاء الفلسفة وفهم جميع الصنائع وتوفر حظه من الحكمة كلها ولو كان ذلك كذلك لكان وجود سائر كثير من الناس بدون سعادات عبثا لا غاية لهم ولا كمل ولا صبحوا أشقياء ولكان حينئذ يزول الحمد والذم ويبطل الدعاء والزجر ويقبح التأديب والسياسة وهذا خلاف ماذكرته وقررته وشهدت به العقول وأحكمته .

وعلى ذلك فالسعادة ليست هى الغاية العظمى للإنسان وأيضا ليست الكمل المطلق بل هناك كمل نهائي وغاية أخيرة يسعى إليها البشر ذورة الغايات ونهايتها وهو الكمل الإنسانى التام البعيد والقريب فى تحقيق السعادة فى الحية الآخرة وهى منل الإنسان فى الوصول إلى الخالق ومشاهدة الأنوار الإلهية فى الحضرة الربانية وبهذا يخالف ما عليه الفلاسفة من معنى السعادة ومراتبها فى الإنسان المتعددة من حيث أنها جسمانية وعقلية لكل واحد من المراتب أشياء تتحقق بها هذه السعادة لابد من أن يسعى الإنسان وراء هذه الأشياء حتى يفعلها ويحققها فى ذاته أولا ثم يحققها فى غيره حسب الإمكان ومن هنا يمكن للإنسان أن يكون سعيدا خلافا لما جاءت به الشريعة من السعادة فى الدنيا يتحقق بفعل الطاعات والتزام الأوامر واجتناب النواهى والعمل على سعادة الآخرين حسب القدرة البشرية فى الإنسان .

المبحث الرابع
المسئولية الخلقية

يراد عادة بالمسئولية ما يوكل إلى الإنسان من مهام ليقوم بتدبير أمرها ويكون مسئولا عنها، فإذا قيل إن مسئولية أى عمل من الأعمال إنما تنصب عادة على الشخصية التى تقوم بهذا العمل فى المعنى فقط، أما فى لسان الاخلاق والقانون فلها معنى آخر: نسمع الأخلاقيين، ورجل القانون يقولون هذا الشخص لامسئولية عليه لأنه مجنون أو لأن الجناية وقعت دون إرادته فهو لايسأل عنها، وهذا الشخص مسئول لأن العمل وقع منه وهو بكامل وعيه التام وإرادته الاختيارية.

وإذن فالمسئولية (حالة للإنسان بعتبر فيها مؤاخذاً على ما فعله أو على تقصيره فى واجبه) .

ومما أوضحته يظهر لنا أن هذه المسئولية لها شروط تتوافر أحيانا ولا تتوفر هذه الشروط فتنعدم المسئولية ولا يكون المرء أهلا لأن يسأل أو يؤاخذ :

وإذن فما أركان هذه المسئولية وشروطها؟

١- بداهة لابد لأية مسئولية سواء أكانت خلقية ام دينية أم قانونية من توفر العقل الذى لو فقده الإنسان لأصبح مثل الحيوان الأعجم غير أهل لأى نوع من المسئوليات، ومن البديهى أن عقله إذا كان يرجع إليه أحيانا فإن التكليف والمسئولية يعودان إليه طالما كان عاقلا عارفا بالحقائق الإنسانية فى قانون الاخلاق وعواقب الأمور .

٢- الشعور بقانون أدبى للخير والشر مفروض على الإنسان طاعته والخضوع له، فلو فرضنا إنسانا خطفته القرود من مهده وبدأ حياته فى الغابة وصار عاقلا مميزاً ولكنه لم يعرف أى شئ عن قانون الأخلاق ولا أى معنى للخير والشر فإنه يفقد المسئولية تماماً وإن كان عاقلا ولا يكلف خلقيا ولا دينيا ولا اجتماعيا إلا إذا أمكن عودته إلى الجماعة وتم له إدراك للخير والشر.

٣- الحرية التى يستطيع بها أن يختار أفعاله بلا إجبار ولا قهر فلو أن إنسانا سويا فى عقله وشعوره الأدبى بالخير والشر وكان رهين السلاسل والأغلال فمنعه ذلك من عمل واجب أو دفع شر كان يجب عليه دفعه لو كان حراً طليقا فإنه لا مسئولية عليه.

ومن الخير أن نشير إلى بعض الناس قد يتعلل لتقصيره فى عمل الواجب بأعذار وأهية ويدعى أنه كان معذوراً فى تقصيره على أداء ما يجب ولكن الشرائع والأخلاق طالما خاضت فى هذا الموضوع حتى أبانت عن الأعذار الواهية الكاذبة كمن يتأخر عن نجدة مستغيث فى ظلام الليل بأنه لم يكن معه سلاح فخاف على نفسه، هذا رجل أنانى يترك قانون الواجب ويحكم قانون المنفعة إن أقل شئ يتسلح به ولو عصا أو سكين أو حجر قد يكفيه فى أداء ما يجب.

ورب صرخة امرأة شجاعة تخرج للنجدة ينخلع لها قلب المعتدى فيطلق سيقانه للريح حاسباً أن صرختها ستجمع عليه ما لا طاقة له بدفعه إن مثل هذا الجبن والأنانية وحب النفس لا يكون عذرا يهدم عنصر الحرية كما يدعى الجبناء، ذكر علماء السيرة إن صرخة دوت فى المدينة ففزع أهلها فى الظلام ذرافات ووحدانا نحو مصدر الصوت، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم سبقهم إليه وحده استقبلهم راجعا يقول لهم:

لن تراعوا لن تراعوا: لقد كانت حياة هذا النبى الكريم الذى لا عدد لأعدائه أجدر حياة بالحرص عليها لعظم مانيط بها من مهام ومصالح ولكنه الواجب الايعرف حساب المضار والمنافع كما يعرفه الجبناء وطلاب المنافع.

مسألة مهمة:

يرى بعض الأخلاقيين أن الجهل يمكن أن يكون عذرا يقلل من المسئولية، ويرى الآخرون أن الاعتذار بالجهل يجعلها أشد وأكبر لأن الجاهل لم يعد له عذر فى أيامنا هذه ولا سبب له إلا الكسل واستمرار البطالة ومطاوعة الغرائز ولو أننا تسامحنا مع كل من يدعى العذر بجهله من

الكسالى والبله، أو ظلمنا ظلما مبيناً أولئك الأئمة الذين كانوا يقطعون ألوف الأميال فى الصحارى والقفار من أجل ما قد يتاح لهم من دروس معدودة أما عالم من العلماء ولسنا ننكر أن المسئولية تعظم وتتأكد كلما أتيح لأصحابها من هبات الله وفرص المجتمع ما يجعلهم قادة وموجهين وإن المسئولية تخف كثيراً عندما ننظر إلى أولئك البائسين الذين قست عليهم نظم المجتمع فلم يظفروا من عنايته ولابقلامة ظفر وكان قصاراهم أن يخضعوا لألم الجوع والمرض، ثم يذهبون وقود الحياة لم ينالوا منها خيرا.

الجزاء

الجزاء فى اللغة المكافأة على العمل، وفى اصطلاح الأخلاق هو ما يترتب على عمل الإنسان المسئول من مثوبة فى الخير وعقوبة فى الشر والجزاء إما مادى وإما أدبى وإما جامع لكليهما.

أما الأجزية المادية فتمثل فى الجزاء القانونى كالحبس والجلد للأشرار والمجرمين والمكافآت المالية للمخلصين العاملين.

وأما الأجزية الأدبية الخالصة فتتمثل فى الجزاء الخلقى الذى يكون فى الخير برضا الضمير واطمئنان النفس والسعادة الداخلية وفى الشر بتأنيب الضمير والندم والشعور بالقلق والاضطراب النفسى كما تتمثل فى الجزاء الاجتماعى الذى يكون أحيانا بنجاح المرء فى مجتمعه وظفره برضاه وتقديره واحترامه .

أما اجتماع الناحيتين الأدبية والمادية ففى الجزاء الأخروي فيكون برضى الله سبحان وتعالى، وبما أعد للخير من نعيم الجنة أو للأشرار من الهم والخزى وغضب الله ونقمته وعذاب النار لهم.

الحاجة إلى هذه الأجزية :

من المعلوم بالضرورة أن الناس لم يخلقوا كلهم على طبيعة واحدة كالملائكة. وإن منهم الأخيار ومنهم الأشرار. فلو أن عنصرهم الطبيعي كان متساويا لما كان لمبدأ العدالة وجود لاعلى الأرض ولا فى السماء فكان من حكمة الحكيم سبحانه أن تجعل الدنيا دار عمل وجزاء مناسب لهاو أن

تكون الآخرة دار الجزاء الأخير ودار القرار . ولولا ذلك لما وجد الخير على الأرض ولا كان للتكليف سلطة على النفس الإنسانية، فمن أجل هذا كان فى الأجزية القانونية الجزاء بالقصاص والسجود والجلد وشتى العقوبات المادية للأشرار، وكان الأمن والصون وما قد يكون من مكافآت مالية ونموها للأخيار .

وفى الأجزية الخلقية بما يناسبها وفى الاجتماعية بما يناسبها وفى الأخروية بما يناسبها (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار)[10].

الجزاء الأخروى والحاجة إليه:

لا يستطيع إنسان أن يدعى أن الأجزية الأرضية من خلقية وقانونية واجتماعية يمكنها أن تضمن العدالة التامة بين الناس. إن ضحايا الظلم على الأرض لا يحصهم الحساب، كما أن جنود الفضيلة المجهولين الذين يجاهدون من أجل الخير ثم يسقطون صرعى لم ينالوا سوى الشر والظلم والبغى يملأون نصف القبور من عهد آدم إلى عهدنا هذا .

فأية عدالة تسع هؤلاء إن لم تكن عدالة العدل سبحانه وهو أسرع الحاسبين الذى يحاسب على الفتيل والقطمير (وإن تكن مثقل حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله).

تلك هى العدالة التى لا تفلت ظالما ولا تغبن مظلوما مثقل ذرة. العدالة التى لولاها لفسدت الأرض وكان للإنسانية أن تسخط على وجودها وحظها التعس وتعتبر نفسها قد خسرت الدنيا والآخرة. أنها العدالة العليا عدالته سبحانه تعالى (لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)صدق الله العظيم .

---

(10) ص ، 28.

الفصل الرابع

المبحث الأول

الأخلاق فى القرآن الكريم

كلمة خلق : بضمتين - وردت فى القرآن الكريم مرتين - الأولى:
- فى سورة القلم قل تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[١١] .
والثانية : فى سورة الشعرا قل سبحانه : (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)[١٢] .
الأولى : جاءت فى مقام المدح .
والثانية : جاءت فى و صف مادرج عليه الأولون.
الأولى : جاءت معياراً لما ينبغى أن يكون .
والثانية : أتت وصفاً لما هو كائن .

أما ما ينبغي أن يكون : فقد جاء من رب العالمين، لا من أحد من الناس أجمعين نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وأمر أن يكون فيه أولا قدوة لمتبعيه (فإذا قرأنه فاتبع قرآنه)[١٣] يقول ابن عباس رضى الله عنهما: (يعنى إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك يا محمد فاعمل به) فكان سلوك النبى صلى الله عليه وسلم تفسيراً بليغاً للقرآن الكريم .

وما أسهل أن يفسر الإنسان كتاب الله بلسانه .. لكن الأصعب أن يفسره بسلوكه وجنانه .

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلوات الله فقالت : كان خلقة القرآن .. فالأخلاق إذاً عمل يعمل لا كلام يقل، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان. يقول الله فى كتابه العزيز : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)[١٤] فالنبى صلى الله عليه وسلم قدوتنا وهو مثلنا فى هذه الحية ويوم كانت أخلاقنا عملا بما جاء فى كتاب الله من مبادئ الأخلاق وضوابط

---

(١١) القلم ، ٤.
(١٢) الشعراء، ١٣٧.
(١٣) القيامة، ١٨.
(١٤) الأحزاب ، ٢١.

السلوك يومها أقمنا أمة نمت وربت حتى كان يحج إلينا كثير من الناس للأخذ عنا والاقتباس منا: فى القاهرة ودمشق وبغداد، وقرطبة، والقيروان، ولما باتت أخلاقنا فى ألسنتنا كلاما لا فى قلوبنا عملا . مزقنا دولا تضل حين تعدها عداً، ولا مخرج من هذه الحل إلا أن نغير ما بأنفسنا. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١٥] أما أن نجمد على ما تفتحت عليه أعيننا من انحراف واختلاف قائلين ما قالت الأمم الخالية : (إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)[١٦] فذلك هو الخلق المذموم الذى أهلك عاد الأولى ، والذى حذرنا القرآن الكريم منه الآية الثانية حيث يقول : (إن هذا إلا خلق الأولين) والقصة تقول : (كذبت عاد المرسلين ، إذ قل لهم أخوهم هود الا تتقون إنى لكم رسول أمين، فأتقوا الله وأطيعون وما اسالكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين، أتبنون بكل ريع أية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فأتقوا الله واطيعون، وإتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون إن هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذبين. فكذبوه فأهلكناهم، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)[١٧] وبين أن هذا الإهلاك سببه أو من أسبابه : (الإسراف) و (الظلم) (بناء) على ذلك ، فالأخلاق في القرآن الكريم معيار لما ينبغي أن يكون وليست وصفا لما هو كائن وجموداً على هذا الكائن إلا إذا كان تيسيراً لمبادئ الأخلاق وضوابط السلوك كما جاء فى القرآن الكريم . نعود بعد هذا الإجمال إلى الموضوع بشئ من التفصيل .

هذا الموضوع فى القرآن - يقتضينا أن ننظر إليه من جهات أربع:

أولا: من جهة الموضوع

ثانيا: من جهة الواضع.

ثالثا: من جهة أساس الشرع .

---

(١٥) الرعد، ١١.
(١٦) الزخرف، ٢٣.
(١٧) الشعراء ، ١٣٨، ١٣٩.

رابعاً: من حيث الباعث على العمل وأهدافه وجزاؤه.

أما الموضوع، فالقانون الأخلاقى فى القرآن الكريم لم يدع صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالنشاط الإنسانى إلا وقد رسم لها منهجا للسلوك تفصيلا حينا وإجمالا حينا آخر . فنظم القرآن الكريم علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى ، ونظم علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببنى جنسه بل تخطى ذلك إلى علاقة الإنسان بالكون ويطول بى المقام إن تكلمت على ذلك تفصيلا لذلك سأكتفى بالمثال :

خذوا مثلا فى تنظيم علاقة الإنسان بربه . (وأذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصل ولا تكن من الغافلين)[١٨](أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)[١٩] .

واقرأ فى علاقة الإنسان بنفسه قول تعالى "(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ"[٢٠] ولما كانت الخالق العظيم لا تنبت إلا فى القلب الطاهر السليم لذاعنى القرآن الكريم بالقلب مصدر الأخلاق أكبر عناية حتى ذكره فى أكثر من مائة آية.

فبين أن القلوب صحائف الإيمان. قل تعالى " أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ"[٢١] وبين أن الهداية هداية الإنسان إلى الحق والخير إنما تكون فى الإيمان بالله، (ومن يؤمن بالله يهدى قلبه)[٢٢] وبين أن القلب منزل الوحى (نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان

---

(١٨) الأعراف، ٢٠٥.
(١٩) الإسراء، ٧٨، ٧٩.
(٢٠) الأعراف، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣.
(٢١) المجادلة، ٢٢.
(٢٢) التغابن، ١١.

الخالى

عربى مبين)[٢٣] ويرشد القرآن الكريم إلى أن القلب السليم من الشرك والنفاق ومن الحقد والحسد والغل والضغينة، والقلب السليم من هذه الآفات هو المجاز من الله (يوم لا ينفع مل ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)[٢٤] وبين القرآن الكريم أن افة القلب إنما هى فى الذم" كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، والقلب محل الطمأنينة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٢٥] وبين أن الاتحاد بالقلوب لا بالأجسام (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)[٢٦] وحذرنا القرآن الكريم أشد الحذر من المعاصى والذنوب حتى لا يمرض القلب، فمرض القلب مهما قدمت له الحجج وبينت له من الدروس وسقت له من البراهن فإنه لم يزدد إلا رجساً وبالحق كفراً . (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا : فأما الذين أمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسم وماتوا وهو كافرون)[٢٧] فمرض القلب سوء الظن بالله ورسوله (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً)[٢٨] وإذا كان القرآن الكريم قد دعا هذه الدعوة القوية إلى العناية بالقلوب والضمائر على تعبير آخر فما ذلك إلا لأنها مصدر الخلق وضعها النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "إلا وإن لله أو أنى فى أرضه وهى القلوب وأحبها إلى الله أصفاها وأصلبها وأرقها: اصفاها من الظنون وأصلبها فى الدين وأرقها على الأخوان .

ومن هنا نقف وقفة بين الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية.

الأخلاق الفلسفية تقول : إن الأخلاق الدينية وظيفتها فقط تنظيم الصلة بين الإنسان وربه فهذه هى وظيفتها ليس إلا، ولا دخل لها بعد ذلك فى شئ من أمور المعاملات وعلى ذلك قرر علماء الغرب من باحثى

(٢٣) الشعراء، ٩٣، ٩٤، ٩٥.
(٢٤) الشعراء، ٨٨، ٨٩.
(٢٥) الرعد، ٢٨.
(٢٦) الحشر، ١٤.
(٢٧) التوبة، ٢٤، ٢٥.
(٢٨) الأحزاب، ١٢.

الفلسفة هذا الرأى وأيدوه بينما الأخلاق الفلسفية تسير فى إتجاه عكس ذلك على خط مستقيم فإنها ترسم الطريق لسلوك الإنسان، ولا شأن لها بعد ذلك فى مسألة نظام الشعائر الدينية والعبادات الربانية .

هذا هو رأى الأخلاق الفلسفية فى الأخلاق الدينية، وتبنى الأخلاق الفلسفية رأيها هذا على مسألة الحق والواجب تقول كل حق يقابله واجب . فأين الواجب على الله لنا.. حيث لا واجب عليه لنا فلا حق له قبلنا هذا هو محل النزاع بين الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية، وغاب عن الأخلاق الفلسفية هذه إن صح هذا فى دين ما فما أبعده عن أن يكون طابعا لقانون الأخلاق فى القرآن الكريم .

الأخلاق فى القرآن الكريم تفرض سلطانها على جميع وجوه النشاط الإنسانى سواء ما اتصل منها بعلاقة الإنسان مع نفسه، أو مع بنى جنسه فى الفرد والمجتمع بل يتخطى ذلك كله إلى علاقة الإنسان بالكون كله.

والقاعدة التى بنوا عليها رأيهم هذا تنهار أمام نصوص القرآن الكريم فالقرآن يقرر فى صراحة لا لبس فيها ولا خفاء أن للخلق حق على خلقهم كتبها على نفسه تفضلا إذ عبدوه لا يشركون به شيئا وهو أن يدخلهم الجنة قل تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٢٩] وقوله تعالى﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً﴾[٣٠].

ويقولون إن الحق لا ينتج إلا عن عقد فأين هو العقد بيننا وبين الله سبحانه ونسوا قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ... قَالُوا.. بَلَى ﴾نعود بعد هذه الوقفة القصيرة إلى السير فى الموضوع محددين أولا منطقة الأخلاق من بين مناطق النفس الأنسانية مفرقين بين الأخلاق والسلوك لنسير فى الموضوع على هدى وبينة.

---

(٢٩) التوبة، ١١١.
(٣٠) الفرقان، ١٦.

الأخلاق أولا ليست صفة للنفس فى جملتها، وإنما الأخلاق صفة للنفس فى جانب من جوانبها، ليس هذا الجانب هو العلم والمعرفة ولا جانب الشعور والعاطفة، وإنما هو جانب الإرادة المنفذة، والضمير الموجهه والإرادة المنفذة تنحصر فى كل ثروة الأخلاق وعليهما تدور قضيته فهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه .

والأخلاق ثانياً صورة للنفس الباطنة، والسلوك صورتها الظاهرة، أو بعبارة أخرى السلوك الخاص بالهيأت والأشكال والصور المدركة بالبصر وخص الأخلاق بالقوى، والسجايا المدركة بالبصيرة. وعلى ذلك تكون العلاقة بين الأخلاق والسلوك علاقة الدال بالمدلول. فسلوك الإنسان الظاهر على مسرح هذه الحياة هذا السلوك يعطينا فكرة واضحة من الصور الباطنة، ولكن ليس ذلك دائما بل يتوقف الأمر مع الظروف التى تحيط بك وتؤثر فيك. وقد رأينا تلك الدعوة القوية إلى العناية بالصورة الباطنة أو الصورة المضمرة صورة القلوب أو الضمائر ، فلتتقل بعد ذلك إلى الصورة لنرى ما أتى به القرآن الكريم من ضوابط لتنظيم السلوك الإنسانى سواء أكان هذا السلوك شخصياً ينير لك الطريق فى تدبير أمر نفسي أو إجتماعي يهديك إلى الصراط المستقيم حين تعامل غيرك من بنى إلا إنسان بل حين تعامل غيرك من الحيوان .

خذ مثلا أدب الحديث ، إن القرآن الكريم يأمر فى هذا الباب ويحث على انتقاء الألفاظ الرقيقة المهذبة (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن)[٣١] (أدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[٣٢] وقوله تعالى (فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[٣٣] (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)[٣٤] وخذ مثلا فى آداب المشى فى الطريق قوله تعالى "(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

---

(٣١) الإسراء .
(٣٢) فصلت،٣٤.
(٣٣) الحجرات،
(٣٤) النساء، ١٤٨.

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[٣٥] .

وأمثلة عديدة من آداب الزيارة والوصية بالوالدين والأمر بالعدل والأحسان ويطول بنا المقام إذا استرسلنا فى هذه الناحية بضرب الأمثل لأن القرآن الكريم فى باب تهذيب الأخلاق وبيان ضوابط السلوك أمر بالمودة والتعاون والرحمة والعفة والإحسان والأمانة والبشاشة والاستقامة والنظافة والنظام والصدق والإصلاح بين الناس والإخاء والعفو والصبر والثبات والشجاعة وحسن الضيافة والتضامن والشكر والطهر والسلام، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا بل عمل على التأكيد على تهذيب الأخلاق وضبط سلوك الإنسان ونهى عن أضداد الصفات المتقدمة من الإعتداء والاختيل والبهتان والبخل وغيرها، بعد ذلك ننظر إلى الموضوع من الجهة الثانية وهى ناحية الواضع لقانون الأخلاق أو ناحية الإلزام الأدبى فى الأخلاق .

والإلزام فى الأخلاق الدينية مصدره إلهى صرف : قل نزله الروح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين[٣٦] (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)[٣٧] إلى آخر الآية .

وهنا أقف مرة ثانية بين الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية نقول إن مصدر الالتزام الأدبى شئ آخر غير الوحى السماوى ذلك هو العقل أو الضمير أو الإحساس الأخلاقى الذى ينطوى عليه قلب الإنسان أو تلك الضرورات الاجتماعية التى يتطلبها الزمان يقولون ذلك وفاتهم أن الأفكار تتعدد بتعدد الرؤوس على أن صانع العقل هو الله ورحم الله من قل :

إذا اعترض العقل على ربه   فإنما العقل هو الجهل
يعترض العقل على صانع   من بعض مصنوعاته العقل
إن بان فضل العقل فى صنعه   فصانع العقل له الفضل

---

(٣٥) لقمان، ١٨، ١٩.
(٣٦) النحل، ١٠٢.
(٣٧) الإسراء،

وأما من حيث الجهة الثالثة وهى أساس التشريع فنقول الأخلاق الفلسفية إن كانت إرادة الله العليا وقضاؤه المبرم هى أساس التشريع وهى مستندة فى الأخلاق رضيت النفس أم كرهت اقتنع العقل أم آبى كان ذلك تحكما، فالحياة متطورة وضروريات الناس متجددة وما جاء من عند الله لا يغير ولا يبدل وفاتهم كذلك أن قانون الأخلاق فى القرآن الكريم بعيد كل البعد عن هذا التمكن الذى زعموه بل على العكس من ذلك فإن أوامر الله تعتمد دائما على الحكم المعقولة والمقبولة وتخاطب الإدراك السليم والوجدان النبيل بالأسباب المقنعة التى تبرر أمر السماء وتبين أنه ليس تحكما بل فرض من صاحب سلطان قاهر، وإنما المصلحة هى التى اقتضت ذلك ومن أدرى بمصلحة العباد إلا خالقهم، اقرأ قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[٣٨] فالقرآن الكريم حين يطالبك بشئ أو ينهاك عنه فهو لا يطلب إليك ولا يرضى منك أن تنفذ ذلك تنفيذاً آليا خضوعاً لصوت حكمه فحسب وإنما يطلب منك أولا وقبل كل شئ أن تسرى هذه الأوامر إلى أعماق ضميرك وشغاف قلبك حتى يسر بها ثم تفيض إنبعاثا ذاتيا، ومن هنا كانت أول خطوة يخطوها الإنسان نحو الواجب هى الإيمان بوجوب عدالته وكانت الخطوة الثانية هى أن ينبع الفعل من ذاتك وضميرك أنت وإلا كان عملك فى نظر الأخلاق وعند الله هباءا منثوراً فالضمير قائم على اساس الشرع وهذا الضمير حاسة فطرية عند كل الناس حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم (البر ما اطمأنت إليه النفس وأطمئن إليه القلب والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك[٣٩])

نعود بعد ذلك إلى الجهة الرابعة من جهات الموضوع وهى الباعث على العمل والدافع عليه وهذا يقتضينا أولا أن نتكلم عن المسئولية الخلقية فى القرآن الكريم. إن القرآن قد سد النقص الذى لا يمكن لقانون

---

(٣٨) العنكبوت، ٤٥.
(٣٩) الحديث.

ما فى العالم أن يسده حيث إن الإنسان مسئول عن أعماله جميعاً من الألف إلى الياء قل تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٤٠] ومن هنا تظهر فائدة الأخلاق الدينية للنظام العام. القانون لا يسألك إلا حين تخالف امره فقط أما الأخلاق فإنها تسألك حيث لا يقدر القانون أن يسألك وتلزمك حيث لا يستطيع أن يسألك إلا أمام المحاكم الوطنية حيث يقبض عليك رجل الشرطة مثلا ويقدمونك للعدالة الإنسانية فى ساحة القضاء، ولكن الأخلاق تسألك أمام محكمة الضمير الإنساني فى ساحة العدل الإلهى يستطيع أى مجتمع أن يعييش بلا علم وفن ولكنه لا يستطيع أن يعيش بلا دين والمقصود من ذلك الأخلاق والمنبع الإنسانى يتكون من أرادات حرة أعنى أنه لا يعيش فى نظام إجتماعى أساسه حرية الإرادة، ولما كان الناس يعاملون على نياتهم ومن يعاقبون على أعمالنا فى هذه الدنياهم مثلنا يضرب عن علمهم ما تجيش به صدرونا من النبات والمقاصد وأن العدل الآلهى لا محالة واجب فوجب علينا إذن أن نؤمن بأن هذه الحية الدنيا لا يمكن أن تفهم أبداً بدون حياة آخرة .

والنتيجة المنطقية لهذا مادام الله تبارك وتعالى هو الهادى قل تعالى ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٤١] النتيجة المنطقية هى أن يكون طمعنا فى ثواب الله وخوفنا من عقابه هى الباعث لنا على العمل فى هذه الفانية يقول القرآن الكريم فى الثواب ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾[٤٢] ويقول فى مقام العقاب ﴿ قل هل أنبئكم بالاخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحية الدنيا وهو يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلانقيم

---

(٤٠) الإسراء، ٣٦.

(٤١) القصص، ٥٦.

(٤٢) البينة، ٧، ٨.

لهم يوم القيامة وزنا)[٤٣]، وعلى ذلك فاليس الذى ورد من الثواب والعقاب هو كل ما فى القرآن الكريم من باعث الخاصة من الناسَ وهو الباعث الأعلى فى نظر الدين يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا إبتغاء وجه ربه الأعلى)[٤٤] ويقول جل شأنه(ومن الناس يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد)[٤٥] هكذا نرى الأخلاق فى القرآن الكريم ترسم لنا طريق السير فى الحياة الدنيا وتجعل هذا الطريق موصل إلى الحياة الدائمة فى الآخرة التى قل عنها الخالق عز وجل(والإخرة خير وأبقى)[٤٦] .

المبحث الثانى
المثل الأعلى
الحياة معركة نصفها أن تعرف نفسك ونصفها الآخر مثل أعلى مناسب فى الحياة "حكيم"

هذه الكلمة - كلمة حكيم - تنير لنا طريق الحياة وتدلنا على كيفية السير فيه .

هذا الطريق نصفه أن تعرف نفسك، على معنى أن تعرف مواضع النقص فيها لتكملها ومواضع الكمل فيها لتنميها، ونصفه الآخر مثل أعلى ترسمه لنفسك ثم تضعه أمامك هدفاً لك، وتسدد اليه جهودك مسرعاً نحوه على أن تحاسب نفسك آخر النهار كل يوم حين تخلد إلى الراحة من عناء العمل وصخب الحياة تحاسبها: كم قطعت فى سبيله؟ وكم يتبقى للوصول إليه ، فيها، أولئك الذين ساروا على غير هدى فى طريق هذه الحياة، وإنما ينظر إليها من نافذة الدنيا على وجهها الصحيح.

---

(٤٣) الكهف، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.
(٤٤) الليل، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.
(٤٥) البقرة، ٢٠٧.
(٤٦) الأعلى، ١٧.

وإذا كان " الحكيم " يشبه الحياة بمعركة، تكسب نصفها إن عرفت نفسك وتكسب نصفها الآخر بأن تحصل على مثل أعلى مناسب فى الحياة فما هو هذا المثل ؟

وهل هناك مثل أعلى يقره الجميع ؟

وما هى القاعدة التى ينبغى أن تقيم عليها المثل الأعلى لك .

وإذا كان الناس ينتزعون مثلهم من البيئة التى هم فيها فما هو "المقياس" الذى يقاس به أوينبغى أن يقاس به هذا المثل ؟ وأخيرا ما سر فشل بعض الناس فى هذه الحياة؟ وهل من صورة نتخذها فى حياتنا مثلا "للمثل الأعلى وردت فى القرآن الكريم فقد قال تعالى فى سورة النحل الآية ٢١ " ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ". وأول ما يرد على ذهن من يقرآ هذه الآية هذا السؤال : أيجوز أمام هذا النص أن تسند المثل الأعلى لمخلوق مادام أن المثل الأعلى الله؟

الجواب ينبغى أن نعرف أولا:

ما هو مدول ، المثل الأعلى الذى اسنده القرآن الكريم إلى الله العزيز الحكيم .

إتفقت كلمة المفسرين على أن مدلول ألمثل الأعلى فى الآية هو الصفة المقدسة المنزهة عن المماثلة، واختلفوا فى تحديد هذه الصفة فالفخر الرازى يقول. هى كونه تعالى منزه عن الولد ويرشح هذا المعنى قوله تعالى فى آية سابقة : " ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون "[٤٧] وأبو السعود يفسرها بالوجوب الذاتى، والزمخشرى يفسرها بالغنى عن العالمين إلى آخر ما يقولون فى تحديد هذه الصفة المقدسة .

والغزالي فى كتاب " المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى يقول. لا ينبغي أن يظن أن المشاركة فى كل وصف توجب المماثلة، أما ترى أن الضدين لا يتماثلان وبينهما غاية البعد الذى لا يتصور أن يكون بعد

---

٤٧ - الآية ٥٨ سورة النحل

قوة، وهما مع ذلك متشار كان فى أوصاف كثيرة، إذ السواد يشارك البياض فى كونه لونا وفى كونه مدركا بالبصر، وفى أمور آخرى سواها.

وعلى ذلك فلا يلزم من أن نصف مخلوقا بأنه موجود، مثلا أو أنه رحيم أو بأنه سميع بصير لا يلزم من ذلك أن يكون قد شبهناه بالله تعالى، وأثبتنا له المثل وأن المماثلة عبارة عن المشاركة فى النوع والماهية .

فالفرس مثلا وإن كان بالغا فى الكياسة لا يكون مثلا أعلى للأنسان لأنه مخالف له فى النوع، وإنما يشابهه فى الكياسة التى هى عارضة خارجية عن الماهية المقومة لذات الإنسانية، والخاصية إلا أنه الموجود الواجب بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الإمكان وجوده على أحسن وجود النظام والكمال، وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة .

بناء على ذلك وما دمنا لا نريد من مثلنا صفة تتنزه عن صفات المخلوقين فلا محل لهذا السؤال ولا مانع من أن نسند المثل الأعلى لمخلوق، ومدلول المثل الأعلى بالنسبة لنا، هو الصفة العليا التى ترضى أنفسنا وهى تختلف باختلاف الناس، يعنى أنه ليس هناك مثل أعلى موجود يقره الجميع اللهم إلا الخير على وجه عام - بل لكل مثله : فهذا مثله " بطل فى صورة كاتب قدير أو عالم نحرير ، أو سياسى ماهر إلى آخر مايرسم كل لنفسه من أجل تحقيق أسمى نوع ممكن من الحياة .

ومثلك الأعلى هو ما ترضى عنه نفسك، لاما يرضي عنه غيرك وهو ما تعتقد أنت أنه خير لك لا ما يعتقد غيرك أنه خير لك.

فأنت أنت الذى تحدد مثلك ، وأنت أنت الذى تختار طراز الحياة التى تستهويك، ومن هنا يفشل كثير من الناس فى هذه الحياة لأنهم لا يختارون مثلهم بأنفسهم، وإنما يختاره لهم غيرهم ويجبرون عليه جبرا، وفى هذا عجز بعض الناس على إبداع عمل عظيم، والمثل الأعلى عند أفلاطون شئ مثالى صرف يعنى أنه ليس بضرورى أن يتجسم فى صورة عملية ليكون صحيحا بل هو صحيح ، وأن قصرت الحقائق الواقعة عن أن تتواءم

معه وتبلغ مرتبته، أو : هو نموذج مقره فى السماء يحاول البشر أن يحا كوه ولكنهم لا يستطيعون أن يبلغوه.

وأما عند ارسطو، فهو قوة مؤثرة يعنى أن المثل الأعلى يكون أولا شيئا مثاليا تتمثله فى ذهنك، وتصوره مخيلتك، ثم بعد ذلك تربطه بالنظم القائمة بالفعل أى أنك ترسمه فى ذهنك، ثم يدفعك هذا على أن تأخذ نفسك على التطبيق بالفعل إلى سبيل الوصول إليه مع العلم بأن المثل الأعلى من شأنه أن يفر منك كلما وصلت إليه، فمثلا قد يكون فى نظر طالب أن يجتاز امتحانه بنجاح فر منه المثل إلى نيل وظيفة ثم يفر منه إلى ترقية فى العمل، وهكذا يجرى منا المثل ونحن وراءه نجرى حتى تنتهى الحياة والمثل - غالبا ينتزعه الإنسان من بيئته التى يعيش فيها: فمن يعيش فى بيئة " لصوص " يرسم مثله أن يكون لهم زعيم ومن يعيش فى بيئة صلاح وتقوى يتخيل مثله أن يكون بطلا فى صورة واعظ دينى أو مصلح اجتماعى والذى يشب فى بيئة سياسيةيتصور مثله أن يكون " زعيما لأمة" أو رئيس حزب سياسى ، إلى آخر ما ينتزعه الناس من بيئتهم التى يعيشون فيها.

وإذا كنت ترى بعض المثل شراً وتافها، وترى بعضا منه خيرا ونافعا فهل هناك مقياس نقيس به المثل الأعلى بصفة عامة .

والمقياس أن يطابق المثل مبادئ الأخلاق القوية والجمال والعقل فإذا تمشي المثل مع هذه الأشياء كان مثلاً أعلى .

وسير العظماء نماذج المثل العليا فى الحياة .

والقاعدة الذهبية التى ينبغى أن يقام عليها المثل الأعلى، هى هذه لا ملك للإنسان على الحقيقة إلا ما تملكته نفسه لا ماتملكته يده فما تملكه فى الحقيقة هو ما فى نفسك أنت، وكل ما عدا ذلك فى يد الدهر لا فى يدك فلأن تكون كعمر بن الخطاب فى " عدله " خير ألف مرة ومرة من أن تكون كقارون فى " ماله " ولأن تكون كأبى العلاء فى شاعريته خير الف مرة ومرة من أن تكون كالإسكندر فى ملكه فالغنى " غنى النفس وقوتك

يجب أن تنبع من ذاتك أنت لا أن تستمد من شئ خارج عنك وترى الذين يستمدون قوتهم من خارج نفوسهم تراهم يضعفون بزوال سبب هذه القوة فالذى يملك عزبة يضعف بضياعها منه ، والذى يملك مصنعا يضعف لذهابه منه ، والذى يستمد قوته من " وزارة " أو " إمارة " يضعف بسقوط الوزارة ، أو بذهاب الإمارة .

أما أؤلئك الذين تنبع قوتهم من ذاوتهم ويستمدونها من أنفسهم، فهم أقوياء بآثارهم التى خلفوها لنا فى بطون التاريخ، وعلى ظهر هذه المعمورة .

انظر إلى الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، انظر إلى العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة ورجل الفن ؟ فهل ترى التاريخ قد خلدهم لضياع كانو يمتلكونها، أو لمل كانوا يقتنونه ، أو لجاه وسلطان كانوا يتمرغون فيه، إنه لم يخلدهم إلا لقوة تنبعث من ذواتهم ، ومن أنفسهم فكانوا على الدهر رغم أنف الدهر خالدين .

وليس معنى إننا نتحقر المادة أو ندعوا للأعراض عنها كلا ؟

فالمادة عصب الحياة أو هى وسيلة الحياة، وبدونها لا يمكن أن تكون حياة إنما المسألة الغنية عن البرهان، والتى ينبغى أن يفهمهما الشباب جيداً وأن يقفوا عندها طويلا هى ما قلناه من أنه " لا ملك عنها الحقيقة " إلا ما تملكه النفس أما ما تملكه اليد فهو وإن كان ملكاً، إلا أن الدهر يملكه أكثر منك، وهذا ا قصده بعض الحكماء من المسلمين حين قل :

العلم خير من المل العلم ، يحرسك وأنت تحرس المل، والعلم يزكو بالإنفاق والمل ينقص بالإنغاق، وهذا هو مادعا ديوجين الكلبى- تلميذا نتستين إلى أن يقول : لما وقع أسيراً فى بلاد الأعداء وعرض للبيع فى السوق ولمح شريفا من أشراف القوم فى زينته وخيلائه : بيعونى من هذا فإنى أراه يحتاج إلى سيد، وهو بهذا يشير إلى أن بعض الناس يفهم أن سيادته فى ملبس فاخر أو موكب " أنيق أو فى خدم وحشم على طول

الطريق وهؤلاء " عبيد أى أنهم عبيد هذه النظرية الخاطئة فى نظر هذا الفيلسوف " الساخر فى نظر من يفهم الحياة على وجهها الصحيح.

إن " ديوجين " هذا يريد بكلمته هذه أن يفتح للعمل نافذة يرى منها الإنسان أنه لا ينبغي له أن يختل إلا بقدرته على ضبط نفسه ، وموجها ذلك فى سبيل " مثلك إلا وسيلة بها تعود أن تكون على الحقيقة لنفسك سيداً؟

إن ما فى العالم من " تفاق " سببه الفقر لا فى الملل ، وإنما الفقر فى النفوس ألست ترى أن نفس ديوجين هذا كانت من أغنى النفوس بما عندها من معان هى أسمى من الملل ، ومما هو فى حكم الملل ؟

وهل هناك أسمى من أن تكون بنفسك غنيا وعلى نفسك سيداً؟

إن بعض الناس فشل فى هذه الحياة لأنهم لا يرسمون لأنفسهم مثلا أعلى يهدفون إليه ، ولأنهم لا يعرفون أن يرسموا لأنفسهم مثلا يولون وجوهم شطره ، بل يعيشون فى هذه الحياة كيفما اتفق وهؤلاء فى حاجة كبرى إلى أن يتذوقوا طعم الحياة، وهذا يتطلب نشاطاً لا يفتر، واعتماداً على النفس، وقدرة على أن تكافح وتكافح فى سبيل مثل أعلى تهدف إليه.

إن على المشرفين على "توجيه النشء فى "العائلة" وفى " المدرسة" وعلى رجل الإصلاح على وجه عام، عليهم أن يلفتوا النظر دائما إلى وجوب أن يكون للفرد مثل أعلى يهدف إليه، وعليهم أن يعودوهم على أن يحاسبوا أنفسهم آخر النهار على ما قطعوا فى سبيله، على أن يحملوا " الشعل " أمامهم دائما .

جاءنى طالب سمعنى أوجه إلى أنه ينبغى أن يرسم كل لنفسه "مثلا أعلى" يحبس نفسه فى سبيله سنوات معدودات، على معنى أنه لا يعرف فى خمس سنوات مثلا إلا أن يسعى إلى مثله، وإلا اتعب نفسه على ما قطع فى سبيل مثل، وإلا أن يخلص إلى مثله الإخلاص كله، وإلا أن يسعى إليه السعى كله.. قابلنى فطلب أن أرسم له " مثلا" فبينت له خطأ هذا الطلب وأنه ينبغى أن يرسم هو لنفسه مثله، على ضوء ميوله، ومشاعره فقال: ميولى

ومشاعرى فى أن أكون " كاتباً " ينفث وحى ضميره فى صفحات تطير فى أنحاء الأرض فيقرأها أكثر خلق الله فما هو الطريق؟

فقلت له : احفظ القرآن الكريم، ونخبة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واقرأ الكامل للبرد وتفسير الزمخشرى، والأغانى، واقرأ عن "شيشرون" و"أرسطو" و"أفلاطون" وأدرس تاريخ بلادك وتاريخ "أوربا" فى القرن التاسع عشر على الأقل، وانتخب لنفسك من الشعر الجيد قصائد فى أغراض مختلفة، واحفظها حفظاً تاما مع فهم معانيها، على أن تكتب بالفعل من آن لآخر أو على أن تستمر لذلك فى عمل هادئ متواصل مستمر.

فقال : ومن أين أبدأ هذا العمل الهادئ المتواصل المستمر وأنا اشتغل "جرسون" فى مقهى لأستعين على طلب العلم فانتشار الكتب وسهولة اجتلابها يسهل الأمر ولكن لا يعين على لقمة العيش " وفى بيئة تحتقر" الفقير" ولا ترحم ذوى الفاقة .

فقلت له: قليلين " مثلك " أن تقلع عن هذه الأغراض اللئيمة من تربة النفس بعملك مهما لبست له المسوح وشددت الحبل فى وسطك، وليكن لك فى أبى تمام خير قدوة فلقد كان يطوف على" حلقات" الدروس فى جامع عمرو يسقى الماء وكأنى أتخيله الآن ينحنى يصب الماء من"إبريقه" وهو يقول :

لا يحسم العقل والدنيا تساسُ به ما يحسم الصبرُ فى الأحداث والنوب

فتركنى مدة إلى أن جاء يقول: لبثت سنوات معدودات أبحث فى سير العظماء عن الينابيع التى تكفل التوفيق فى سبيل " المثل" فما وجدت إلا " الصبر " على العمل ينبوعا.

وإذا كان " المثل الأعلى للإنسان يختلف باختلاف النواحى التى تريد أن تجعل لنفسك فيها مثلا أعلى : فإن محمد بن عبد الله خير أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً ولنذكر مثلا من خلقه

صلى الله عليه وسلم لعلنا على ضوئه نسير، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين".

لما رأت قريش " أن دم الشهيد هو الذى يسقى بذور هذا الدين الجديد رأوا أن يغروا الرسول بعرض الحياة الدنيا لعل ذلك يصرفه عن تسفيه أحلامهم. وتحقير دينهم فتقدموا إليه وهو جالس فى الكعبة، وقال له كبيرهم " عتبة" ونائب قريش : "يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة ، والمكأفة فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد اسمع، قال : يا ابن أخى إ ن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب! وبذلنا فيه أمولنا حتى نبرئك منه حتى إذا فرغ "عتبة" ورسول الله يستمع منه قل : أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قل : نعم قل : فاستمع منى بسم الله الرحمن الرحيم.

حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرا ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون إن الذين أمنوا وعلموا الصالحات لهم آجر غير ممنون، قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقل لها

وللأرض ائتياطوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين، فقضهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون [٤٨].

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى(لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)ولما انتهى إلى هذه الآيات سجد لله ثم رفع رأسه فقال سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

أنظر إلى هذا المثل الأعلى فهل ترى له نظير فى التمسك بالحق، والحكمة فى الدعوى إليه؟

واستمع إليه صلوات الله عليه فى موقف آخر يشبه هذا الموقف يقول:

"ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا أشرف فيكم ولا أملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهذا حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوا، على خير لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

ويتمسك بالصبر فى انتظار النصر ، فهل لنا أن نتخذه مثلا حين ندعو الناس إلى الحق والخير؟ ...

---

[٤٩]- سورة فصلت من الآية ١ إلى ١٤ .

الفصل الخامس

المبحث الأول:

الصدق

فى كتاب الأخلاق ليحي ين عدى؛ أن الصدق هو " الإخبار عن الشئ بما هو به، وأن هذا خلقا حسنا ما لم يؤد إلى ضرر مجحف فإنه ليس بستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها. فإنه لا يفى صدقه بما يلحقه فى ذلك من العار والمنقصة الباقية لازمة، وكذلك ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه، ولا متى سئل عن جناية متى صرف عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة، والصدق مستحسن فى جميع الناس من الملوك والعظماء أحسن، بل لا يسعهم الكذب ما لم يعد الصدق عليهم بضرر.

وإن هذه الآراء لتبدو شديدة الضرر على الأخلاق ومن يعدها من الأخلاق لم يكن مصيباً، لأن إباحة الكذب كلما ترآى للإنسان ضرر أو خاف عقوبة: هو مسلك جدير بالجبناء والنفعين الذى كلما تخيلوا فى الصدق ضرراً عمدوا إلى الكذب وأين هذا من قول الشاعر:

عليك بالصدق ولو أنه أحرق الصدق بنار الوعيد

وأطلب رضى الله فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبد

ولقد كان من فضائل بعض الأطفل التى أعجب بها التاريخ أنهم كانوا يتعرضون للعقوبة فى سبيل المحافظة على واجب الصدق، ولعل الذنب فى هذا الخطأ الأخلاقى يرجع إلى العصر الذى وضع فيه كتاب (الأخلاق) السالف الذكر فقد كان من أسوأ العصور فى التاريخ وأشدها إضطهادا فتلك ضرر على الأخلاق عظيم .

الصدق خلق ينشأ عن العفة والشجاعة وهو من الأدلة عليها وعدمه دليل على عدمهما.

ومن الحق إذا من الأخلاق أن نتبع تلك الشرعة؟ وأين الرجولة والصراحة والشجاعة؟ خلقية أجدر أن تتبعها امرأة أسيرة ولا حول لها ولا

قوة وقد أحاط الأعداء بها، وسيأتى فى هذا الباب أن بعض النساء كن فى فضيلة الصدق أشجع وأسمى وأعظم من أن ينز لن إلى الخلقية الوضيعة والكذب .

والغزالى رحمه الله قد تكلم عن فضيلة الصدق بإسهاب وساق فى محاسنها شواهد كثيرة من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا[1].

يكفى فى فضيلة الصدق ان الصديق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال:(واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً)[2] وقال ابن عباس رضى الله عنه : (أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء والحسن والشكر).

وقال رجل لحكيم ما رأيت صادقا، فقال له لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين هذا، وما أكثر المواضع التى أثنى الله فيها على الصادقين فى كتابه العزيز وحث فيها على الصدق.

وفى كتاب الأخلاق للأستاذ عبد الرحمن زغلول، يقول المؤلف - رحمه الله (الصدق يكون فى القول أولا وفى جميع الأعمال وفى الأفراد وفى الجماعات وفى الدول ثانيا، كالإشارات المستعملة بالرأس واليد لدلالة على معان، كذلك يكون فى الأحوال فإذا خاض جماعة بالباطل فى حق غائب فسكت سكوت الموافق فدل ذلك منك خروج على الصدق، والحاصل أنك إذا قصدت إفهام غير الواقع فدلك عليه بأى شئ فأنت كاذب) .

الصدق فضيلة أساسية ضرورية للاجتماع الإنسانى ولولاها لما قامت شريعة، ولا استنارت سبل الهداية، ولا دون علم، ولا ارتقى فن، ولنتصور مجتمعا لا أثر فيه للصدق كيف تكون حياته، إنه بالطبع لا يمكن

---

(1) الحديث، .
(2) مريم، ٤١.

أن تكون له حياة حقيقية بإنسان عاقل، إنا لنرى الحيوان الأعجم يسترشد بدليل صادق يقيمه من بين أفراده فيسلك به المفازات ويجتاز البحار وكثير ما يؤدى وظيفة الإرشاد بصدق وإخلاص، ولو جرب عليه أبناء جنسه التبرير والخداع لما كان موضعا لتلك الثقة.

ولقد كانت فضيلة الصدق منذ القدم خلق الأنبياء والحكماء والعلماء الأفاضل، وكان أول جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة معتمداً على الصدق الذى عرفه به قومه، إذ قل لهم أرأيتم أن أخبرتكم إن خلف هذا الوادى خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا نعم ماجربنا عليك كذبا قل : إنى نذير لكم بين بدى عذاب شديد[٣].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤثرون الصدق مهما كان ورائه من الألم. ومن أروع ما جاء فى ذلك أن امرأة يقل لها ٠ الغامدية) ذهبت إلى النبى صلى الله عليه وسلم واعترفت بأنها اقترفت جريمة الزنا فلما أراد أن يصرفها وقالت يارسول الله أتردنى كما رددت ما عزا ؟ وكان فى بطنها حمل تقدر أن تفر به وتخفى عارها، ولكنها أبت إلا أن تتطهر بالحد من تلك الجريمة الشنعاء فأخبرته ﷺ بحملها فقل اذهبى حتى تفطميه فذهبت ثم جاءته به وفى يده كسرة وأشارت إلى أنه استغنى عن الرضاع فأمر الرسول ﷺ فحفر لها ورجمت بالحجارة وكان من بين راجميها " خالد بن الوليد ﷺ الله عنه فرمى وجهها بحجر فطار رشاش من دمها على وجهه فغضب خالد وسبها فسمعه النبى ﷺ فقل له، مهلا ياخالد فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لو سعته[٤]، وهذا غاية فى الصدق والشجاعة، الصدق فوق كونه فضيلة تزين العاقل، وهو كذلك من أوثق أسباب النجاح والفلاح ، كما أن الكذب على العكس من ذلك يحط بالقدر ويجر على صاحبه البلايا.

وفى كتاب الأخلاق "لصمويل سميلز" يقول:

([٣]) جابى الضرائب المالية.
([٤]) الأثر.

الصدق ملاك المجتمع الإنسانى ولولاه لفنى وتداعى بناؤه فأصبح فوضى والكذب لا يدعم البيوت ولا الأمم. إذ ما مصير السياسى-الذى يشتهر بأنه كذاب ورب الأسرة الذى يشيع عنه كثرة الكذب ؟ ويقول.

قد يكون الكذب أحقر الرذائل، وقد يكون الباعث على الكذب العناد وفساد النفوس، ولكنه فى الغالب نتيجة جبن النفوس الفاسدة، ومع هذا من الناس من يستهين به ، حتى أن أحدهم ليأمر خادمه أن يكذب له، وهل يدهش بعد هذا إذا وجد خادمه عليه يكذب ؟ ويقول.

ومن الكذابين - المنافقين المتلونين الذين يلبسون لكل أمر ما يلائمه ويقولون غير ما يفعلون، كذى الوجهين فى قصة" بنين " أولئك يحسبون أنهم يخدعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون،أولئك لخلوهم من الإخلاص، لا يصادفون من الناس ثقة بهم وتكون عاقبة أمرهم الفشل وأنهم دجالون.

ومن الكذابين المدعون، قتل المظاهر الذين ينسبون لأنفسهم ما ليس فيهم.

وأما الصادقون فشعارهم التواضع لا يعلنون عن أنفسهم ولا عن أعمالهم وقل" هنن لمنن " (أيها الشباب ، إذا ما أثرى من حولك بالخداع والنفاق والكذب والرياء فكن فقيرا وعش فقيرا ، وإذا ما رأيت الناس يرقون بالذلة والمسكنة بلا منصب ولا قوة وقابل خيبة الأمل بثبات الجنان).

ولعل هذه النزعات السامية هى ما كانت تتحلى بها دوقة (لونجفى) حين تكلمت فى "لويس" الرابع عشر أقوى ملوك أوربا فى عصره، فوصل الكلام إلى مسامع الملك، وكان أخو "الدوقة " من الأمراء فاستحضره الملك وكلمه فيما صدر من أخته "الدوقة" فاعتذر الأمير عن أخته بأن ما نقل عنها غير صدق، وأنه على استعداد للتحقق من ذلك.

ولكنه لما كلم أخته فى ذلك أبلغته أن الكلام فى ذلك قد وقع كما نقل إليه ، وأنها لن تنكر ما وقع فتضم إلى الجريمة جريمة أخرى، وهى الكذب حاول أخوها الأمير أن يحملها على الإنكار فذهبت جهوده عبثا ولما علم بذلك الملك أعجب بشجاعتها وقوة خلقها وغمرها بكثير من نعمه.

وبعد:

فليس بخاف على ذى بصيرة أن الصدق لا يكثر رجاله إلا حيث يسود الحكم العادل ويوجد الحكام الفضلاء وإن داء الكذب إنما يتفشى فى أفراد مجتمع فاسد ذليل مستبد أو كانت تربيتهم تربية ذله واستعباد ، وماأشد ويل ذلك الخلق الساقط على المجتمع.

المبحث الثانى

الصبر

قبل السير فى بيان الصبر وبيان معانيه المختلفة نرى أن نذكر تعريف ابن مسكويه للصبر، فيقول فى تعريفه: الصبر هو مقاومة النفس لئلا تنقاد لقبائح الأشياء) ويعرفه مرة أخرى بأنه (احتمال الكد ، وكل من التعريفين صادق، لأن الصبر يختلف بحسب ما يضاف إليه . فالأول صبر عن الشهوات وهو من قبيل العفة . والثانى صبر على احتمال المشاق فى طلب العظائم وهو من قبيل الشجاعة.

ولم نر من تكلم على الصبر أحسن من "الغزالى" رحمه الله تعالى فقد جاء فى ذلك الباب بالعجب العجاب،ولننقل هنا أهم ما جاء به من البحث والتفصيل والتدقيق والتحليل. إذ نؤثر أن نبرز هنا ذلك الكنز القيم وما هى ذى بدائعه.

قد وصف الله الصابرين بأوصاف كثيرة وذكر الصبر فى القرآن فى نيفن وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا)[٥] وقال سبحانه وتعالى:(وتمت كلمة ربك الحسنى على بن إسرائيل بما صبروا)[٦]، وقال تعالى(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كابوا يعملون)[٧]، وقال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما

---

(٥) السجدة، ٢٤.
(٦) الأعراف، ١٣٧.
(٧) النحل، ٩٦.

صبروا)[٨] وقل تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حاسب)[٩] فما من قربه إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قل تعالى فى الحديث (الصوم لى وأنا أجزى به) فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات . ووعد الصابرين بأنه معهم ، فقل تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وجمع للصابرين بين أمور لم يجعلها لغيرهم . فقل تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار فقد قل ﷺ : الصبر نصف الإيمان على ما سيأتى وجه كونه نصفا . وقل ﷺ : من أجمل ما أوتيتم اليقين وعزمه الصبر: ومن أوتى حظه منهما لم يبل ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. ولإن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافقنى كل امرئ بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمل ثوابه ثم قرأ قوله تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ)(النحل: من الآية٩٦)

ويروى (جابر) أنه سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقل: (الصبر والسماحة) وقل أيضا . (الصبر كنز من كنوز الجنة) وسئل مرة ما الإيمان؟ فقل: (الصبر) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقل: (أفمؤمنون أنتم فسكتوا قل عمر : نعم يا رسول الله قل: وما علامة إيمانكم ؟ قالو نشكر على الرخاء ونصبروا على البلاء، ونرضى بالقضاء ، فقل ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة وقل (فى الصبر على ما تكره خير كثير) وقل ﷺ (إنكم لا تدر كون ما تحبون إلا بصبركم على ما

---

(٨) القصص، ٥٤.
(٩) الزمر، ١٠.

تكرهون) وقل ﷺ: (لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين).

وأما الآثار المترتبة على الصبر فقد وجد فى رسالة "عمر" ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى قل عليك بالصبر واعلم ان الصبر صبران : أحدهما أفضل من الآخر الصبر فى المصيبات حسن. وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر أفضل الأعمل.

وقل " على كرم الله وجهه بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر والجهاد والعدل".

وكان " حبيب" بن أبى حبيب إذا قرأ الآية: (إنا وجدنه صابراً نعم العبد إنه أواب) بكى وقل: وأعجبا أعطى وأثنى : أى هو المعطى للصبر والمثنى. والغزالى رحمه الله يعرف الصبر بعد هذا العرض بأنه (ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات) وعليه يكون ما يظهره طلاب الشر والفسوق من الاحتمل فى سبيل رغباتهم المنحطة. ليس من الصبر ولا من الفضيلة فى شئ. وهذا قريب مما تقدم عن " ابن مسكوبه" أول الكلام على الصبر فى هذا الباب.

وعلى كل من التعريفين يكون الصبر من خواص الإنسان لأنه هو الذى يجتمع فيه ذلك الباعثان المتضادان، باعث الشهوات ، وباعث العقل والدين الذى مهمته أن يقهر الباعث الأول. وقد أبان الغزالى عن ذلك وقل. إن البهائم لا توصف بالصبر، لأنها قاصرة على بواعث الشهوات كما لا يوصف به الملائكة لأنهم مجردون عنها".

بيان الأسماء التى تحدد الصبر:

اعلم أن الصبر ضربان : ضرب فى تحمل المشاق بالثبات عليها، وهو ، إما بالفعل كتعاطى الأشياء الشاقة من العبادات وغيرها . وإما بالاحتمل، كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات .

وذلك قد يكون محموداً موافق للشرع، ولكن المحمود التام هو الضرب الأخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم إن هذا الصبر إذا كان صبراً عن شهوات البدن سمى عفة : وإن كان فى احتمل الغضب سمى حلماً وهكذا.

ولعل "الغزالى" رحمه الله تعالى سها حين جعل من الضرب النفسى الصبر فى الحرب والصبر على المصيبة مع أن الشجاعة فى الحرب من الصبر البدنى أحياناً والشجاعة فى المصيبة منه أيضا إن كانت المصيبة واقعة على البدن.

وأيضا قسم الصبر باعتبار القوة والضعف إلى ثلاثة أقسام :

الحل الأول : أن يقهر باعث الدين داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة. وأصحاب هذه الرتبة هم الأقلون وهم الصديقون الواصلون وإياهم ينادى المنادى.

" يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً" (سورة الفجر آية ٢٧-٢٨).

الحل الثانية أن يتغلب باعث الهوى على باعث الدين بالكلية فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، لا يجاهد لنفسه حق المجاهدة وهؤلاء هم الأكثرون الغافلون الذين غلبت عليهم شقوتهم ، وهؤلاء الذين أشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم . قل تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)(لنجم: من الآية٢٩-٣٠)

الحالة الثالثة: بأن تكون الحرب سجالا بين الجندين، وهذا من المجاهدين ولا يعد من الظافرين. وأهل هذه الحل فى الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم.

أيضاً قسم الصبر إلى ثلاثة مقامات.

١- ترك الشهوات وهى درجة التائبين.

٢- الرضا بالمقدور. وهى درجة الزاهدين.

٣- المحبة لما يصنع مولاه به وهذه هى درجة الصديقين.

بيان مواطن الصبر:

والمواطن التى تستدعى الصبر هى كل حالات الإنسان على تضادها وتباينها فهو لاغنى عنه بحل من الأحوال لأن تلك الأحوال منحصرة فى نوعين.

نوع يوافق الهوى كالصحة والجاه والسلامة والمل وكثرة العشيرة والأتباع، وما إلى ذلك من مفاتن الحياة الدنيا، ونوع لا يوافق الهوى والطبع وسيأتى بيانه.

والنوع الأول: الموافق للهوى يستدعى صبراً عظيماً ، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فلا يركن إليها، ولا يفتتن بها، ليأمن الطغيان والبطر(كلا إنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)(العلق: آيه ٦-٧)، حتى قال بعض العارفين (البلاء يصبر عليه المؤمن والعواقى لا يصبر عليها إلا صديق، وقال سهل الصبر على العاقبة أشد من الصبر على البلاء).

ولما فتحت أموال الدنيا على الصحابة رضوان الله عليهم قالوا: ابتلينا بفتنه الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنه السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المل والزوج والولد فقال تعالى (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أمْوَالُكُمْ وَلا أوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله)(المنافقون: من الآية٩) وقال عز وجَل (إنَّ مِنْ أزْوَاجِكُمْ وَأوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)(التغابن: من الآية١٤) وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة ألا تقدر، ولأن القادر عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة، فلهذا أعظمت فتنة السراء.

وأما النوع الذى لا يوافق الهوى والطبع فهو:

إما أمر بطاعة يصبر عليها ، وإما نهى عن معاص يصبر على تركها والبعد عنها، وهذا النوع داخل تحت الإرادة الإنسانية، والصبر فى هذه المواطن شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر من الخضوع والعبودية وترغب فى التحرر والإسترسال فى دواعى الشهوات ، غير أن الإرادة إذا خلصت وأخلصت لله تعالى تغلبت وانتصرت فى هذا الموطن.

٢- وإما أمور تصيب الإنسان بغير إرادته ولكنه يستطيع دفعها بإرادته كما لو أو ذى بقول أو فعل أجنبى فى نفسه أو ماله فالصبرَ على ترك المكافأة[١٠] بالمثل تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة: ما كنا نعد إيمان الرجل إيمان إذا لم يصبر على الأذى، وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)(ابراهيم: من الآية١٢) ، وقال: (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)(الأحزاب: من الآية٤٨) ، وقال تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (النحل:١٢٦) وما كان أصبر رسول الله ﷺ على ما كان يلحقه من الأذى فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

وإما أمور لا تملك الإرادة دفعها أصلا كمصائب تجئ بها الأقدار من موت عزيز أو هلاك مال أو زوال صحة أو عمى العين وسواها فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، قال ابن عباس ﷺ (فالصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرض الله فله ثلثمائة درجة؟ وصبر على محارم الله فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجه، وصبر على البلايا ولا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين) ، ولذا قال ﷺ (أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا) وقال : ﷺ (ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم اجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها الا فعل الله به ذلك) وعوضه عنها خيراً.

وقال ﷺ : "إن من إجلال الله ومعرفة حقه ألاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك" ويروى أن بعض الصالحين خرج يوما وفى كمه صرة فأخذت منه فقال: " بارك الله له فيها لعله كان أحوج إليها منى" وروى عن بعضهم قال مررت على "سالم" مولى" أبى حذيفة" فى القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء؟ فقال جرنى قليلا إلى العدو وأجعل الماء فى الترس فإن عشت إلى الليل شربته.

١٠- المكافأة هنا الانتقام

وحتى لم تخرج المصيبة بصاحبها إلى الجزع ولطم الخدود وشق الجيوب وترك ما يحل من المأكل والمشرب والملبس وما أشبه ذلك فإن صاحبها لا يخرج عن كونه من الصابرين لأن الحزن إلى الحد اللائق المعتدل من مقتضى الطبيعة البشرية ولا سبيل إلى دفعه أهـ

والآن وقد لخصنا أهم ما كتبه "الغزالى" رحمه الله عن الصبر فى كتابه الإحياء نرى من الواجب نعرض لأثر فضيلة الصبر فى حية الأفراد والمجتمعات لما فى ذلك من الفائدة التى لا تنكر.

لا توجد قضية فى الدنيا إلا والصبر دعامتها ولا يعرف عظيم عاش فى هذا العالم ولم يكن سلاحه الصبر.

إذا كانت قلة الصبر هى التى طردت آدم وحواء من فراديس الخلود إلى أرض الآلام والصراع والجلاد ، فلا شك فى أنهما لم يهبطا إلا مسلحين بالصبر متأهبين به لمواجهة الحية الجديدة وحية الأبوة والأمومة التى لا تقوم بغير الصبر إن لم تكن هى الصبر نفسه.

لولا الصبر لم تكن أبوة أو أمومة أو بالأحرى لم تكن للإنسانية حية بالمعنى الصحيح بل إن الأمومة حتى فى الحيوان الأعجم لتقتضى شيئا من الثبات على الآلام وهو المعنى الذى يسمى فى الإنسان صبراً.

وإن عشق الطير الحرية والخلاء المطلق ليتحمل فى سبيل الأمومة فلا يستطيع الإنسان على مثله صبرا، فالدجاجة تحتضن بيضها عشرين يوما فى مكان مظلم، والأوزة تحضنه ثلاثين يوما لاتخرج إلا لابتلاع حبات معدودات ثم تعود من فورها إلى محضنها ، ولا تزال تكابد لاقسى المشقات فى ملازمة صغارها والدفاع عنها حتى تكبر .

أما الأمومة فى الإنسان فمجهودها أشق والصبر فيها أعظم وأجمل.

ولذا خص الله تعالى الأم بالتصريح وبيان مزية الصبر فى قوله تعالى "(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (العنكبوت:)

وإذا كان الصبر على ما عرفنا هو أصل هذا الحياة من مبدئها فكذلك هو سر نجاح الأفراد فى واجباتهم ووصولهم إلى آمالهم وغاية كمالهم من أجل هذا أمر الله به أنبيائه عليهم السلام وأمر نبينا ﷺ بالإقتداء بهم ليهون عليه ما كان يجده من عناد قومه، وما أجمل قوله عز وجل " فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايو عدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون"[11].

ولقد كان " عمر بن الخطاب " ﷺ يصبر فى الخلافة على بلاء عظيم، ويقول : (اللهم قد ملونى ومللتهم) وكان يلزم نفسه الشدائد وشظف العيش إقتداء برسول الله ﷺ و"أبى بكر" من قبله وكان فى الغدوة ملء العين والقلب ، ولقد أصاب الإسلام على يده نجاحاً لم يكتب لأمة من الأمم على يد حاكم فى مثل ذلك الزمن القصير أما (عثمان) ﷺ فكان لا يطيق الصبر على التقشف وكان إذا حضر طعامه الطيب سأل الناس عما كان يأكل "عمر" ، فإذا أخبروه ببعد الفارق بينهما قال: (رحم الله عمر ومن ذا الذى يطيق ما كان عمر) يطيق.

ولقد صدق " عثمان ﷺ " إذ ما كادت عبقرية عمر تتوارى حتى رتع الناس فى خضراء الدنيا وابتلوا بمظاهرها واستمرأوا مرعاها وتنازعوا على طيباتها فتبدل الأمر وجنى الناس من ذلك أوخم العواقب، وأصبح الأمر أمر ملك المترفين إلا من عصم الله.

ولم تعرف تلك الفضيلة بعد الخلفاء إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ : يروى أنه سأل مملوكا له يوما : ماذا يقول الناس فينا بعد الخلافة؟ وكان المملوك قد ضاق صدره بالصبر الذى ألزم به الخليفة نفسه فأجاب الخليفة: وماذا عسى الناس أن يقولوا ؟ كنا قبل الخلافة فى أطيب عيش والآن عيشنا لا يطاق، فرق له عمر ﷺ وقال له : (إذهب فأنت حر لوجه الله ، أما أنا فأنتظر حتى يكتب لى الله منها مخرجا) وهكذا لم يطق المملوك فى مواطن الصبر ما أطاق سيده فما أسمى وما أجمل أخلاق ذلك الخليفة الصالح.

([11]) الأحقاف، ٣٥.

ولم يعرف فى التاريخ ملك عظيم أو قائد مغوار إلا وقد كان الصبر من أبرز صفاته، من أولئك السلطان " محمد الفاتح " مقوض دولة الروم الشرقية وفاتح "القسطنطينية" او"نابليون" مدوخ الأمم والشعوب او" صلاح الدين الأيوبى" ، قاهر الصليبيين" و" أبو جعفر المنصور" ، مؤسس الدولة العباسية و" عبد الرحمن الأموى" ، صقر قريش الذى طاردته الدولة العباسية وعيونها وأرصادها من " العراق " إلى " الأندلس " وهو وحيد لا معين له سوى صبر لم يسمع العالم بمثله. وكانت خاتمة صبره أن عبر مضيق الأندلس ودخل البلاد وأسس فيها دولة مجيدة كانت تطاول خلافة العباسيين فى الشرق، وتزهو عليها ما شادت من أسس عالية للعلم والحضارة.

كذلك لم يطلع على سيرة محمد على باشا مؤسس الدولة العلوية بمصر فإنه من العبقرية والصبر الذى لا يبارى ، وإن صراعه للمماليك وسعيه للقضاء على فتنتهم ومظالمهم وتطهيره الأرض من شرورهم وجهاده للإصلاح ليعد من آيات الصبر والثبات ، ولو أن خلفه تابعوا سنته فى الإصلاح لكانت حل الشعب غير ما آلت إليه من سوء واحتلال واضطراب، وذل وعبودية للاستعمار الدخيل والإقطاع الوبيل، ولنا رجاء فى إصلاح يمحو كل أثر لهذه المفاسد إن شاء الله على يد ولى الأمر عند الحكم بما أمر الله تعالى به.

وكذا عرفت هذه الميزة فى الأمة العربية وكانت من مفاخرها فى الجاهلية فلما جاء الإسلام وتوحدت وجهة تلك الأمة أتت بالأعاجيب فى ميدان الفتح، وحوت من الأخلاق والأمجاد ما كان موضع عجب العالم.

وبعد ، فإنه لمن أعجب الأعاجيب أن ترى الإنجليزى واليونانى يهجر بلاده إلى أقصى الأقطار ، ويدخل عليها من كل باب سعيا وراء الرزق والتماسا للقوت ، يقيمون فوق ثرانا بين صانع وتاجر وعامل وزارع لا يخلو منهم ظهر الغبراء ولا لجة الماء. ولا متد الهواء ولا كير الصبراء . بينما ترى شباب أمتنا فاتر الهمة خائر العزيمة يأنف من ميدان العمل ويربح ويغدو

فى ميدان البطالة والكسل، ويعاف ما يزاوله أبناء أوربا بين ظهر انينا وتحت عيوننا من أعمل ربما تبدو أول أمرها حقيرة، ولكن الصبر لا يلبث حتى يحيلها إلى جنة من الثمار وكنزا من النضارة ، ولا يملك ابن مصر من اللوم على ضياع واجب قصر فيه (ولعل أبناء أمتنا قد سئموا هذه الحل المحزنة وملوا حيلة الأمانى الفارغة، وإننا لنشاهد اليوم والحمد الله كثيراً منهم قد بدأوا ينازلون الأجانب فى ميدان العمل ويزاحمونهم بأقوى مناكبهم ، ويبزونهم فى حلبة التسابق الاقتصادى ، وفى هذا ما يبشر بنجاح عظيم لأمتنا المجيدة العريقة فى العلم والمدنية.

المبحث الثالث

أ- الحكمة

هى عند أكابر الفلاسفة الأخلاقيين من القدماء ، أم الفضائل وأساسها وملاك الشيم الإنسانية، جعلها سقراط أسمى الفضائل وأجلها منها تصدر وإليها تعود وكانت الحكمة عنده ، تمام العلم وكمل المعرفة، من حواها فقد حوى الخير كله[١٢].

و "أفلاطون يرى أن الحكمة هى الفضيلة العليا التى تنشأ من سيطرة العقل على القوة الغضبية. والقوة الشهوانية، على الجسد والحكيم هو من يفعل الخير لأنه الخير فى ذاته لا لغرض آخر.

وأكثر الأخلاقيين القدماء كانوا يبعدون عن ذلك كثيراً، فقد علمنا مما تقدم من المذاهب الأخلاقية كيف كان طابع الحكيم الرواقى فى شجاعته وزهده وصبره واستهانته بكل آلام الدنيا فى سبيل الفضيلة وحتى "أبيقور" مع اتخاذه اللذة أساسا لمذهبه الأخلاقى كان يظهر بطابع الحكماء الجديرين باسم الحكمة لما تحلى به من عفة وإعتدال وقدرة[١٣].

[١٢] – ينظر كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة (مذهب سقراط).
[١٣]– المرجع السابق– وكتاب الأخلاق النظرية ومذهب (أبيقور).

أما الأديان على اختلافها فالأغلب على روح تعاليمها اعتبار الحكمة منحة من الله يختص بها من يشاء من عبادة فمن أصاب من فضل الله علما غزيراً وتوفيقاً في العمل وإصابة في الحكم ، فقد أصاب الحكمة والخير كله، قل تعالى" (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)(البقرة٢٦٩)

وقل جل شأنه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)(لقمان: من الآية١٢) وفى داود عليه السلام قل تعالى: (وآتَيْنَاهُ الحُكْمةً وفصل الخطاب)[١٤] وقتل (داود جالوت وآته الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)[١٥].

وفى آيه أخرى: " وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)(الانبياء٧٨-٧٩)

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الآيات تفاوت درجات الحكمة حيث لم تمنع حكمة داود عليه السلام من تفوق ابنه عليه فى الفهم وإصابة الغرض فى الحكم.

وفلاسفة الإسلام وكان منهم من يتابع فى فهمها قدماء فلاسفة الإغريق وعلى الأخص (سقراط) و(أفلاطون) و(أرسطو).

ويقول ابن (مسكويه) فى كتاب (تهذيب الأخلاق) أما الحكمة فهى فضيلة النفس الناطقة المميزة، وهى أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة، وإن شئت فقل أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وإيها يجب أن يغفل.

والشائع المتواتر على ألسنة الناس فى هذه العصور يؤخذ عنه أن الحكمة: هى الإصابة فى العلم والعمل.

---

(١٤) ص، ٢٠.
(١٥) البقر، ٢٥١.

وللحكمة أثر بعيد المدى فى ضبط سلوك الأفراد والمجتمعات ، بها تتجنب مزالق الأقدام وتتوقى الأخطار فى الحياة الخاصة والعامة.

وما كانت الحكمة شأن فرد إلا أصاب النجاح والفلاح ، ولا كانت خلق أمة إلا بسطت سيادتها على العالم وسار مجدها سير الشمس. وكيف لا والحكمة تقتضى قبل كل عمل بصراً بالأمور من جميع نواحيها، وحذراً وحيطة قبل الإندفاع فيها فتؤمن بذلك مغنبتها وتركوا ثمرتها.

كان لقب الحكيم من أقدم العصور مرموقا بالاحترام والإجلال بمقدار ما كان للحكمة نفسها من الحب والتقديس ، وكان لكل أمة من الأمم المتحضرة حكماء تفخر بهم وتعتز بتعاليمهم إلى درجة التقديس ، كما نرى ذلك بوضوح فى تاريخ البحث الخلقى عند مختلف الأمم ، بل كان الاعتقاد العام فى تلك الأمم أن أولئك الحكماء قد أوتوا معارف فوق الأفق الإنسانى وإختصوا بمعرفة الغيب وما ليس لغيرهم إليه سبيل والى ذلك يشير الفيلسوف والذى يقول:

ياشهب إنك فى السماء مديحة	وأشرت للحكماء كل مشار
أخبرت عن موت يكون منجما	آفتخبرين بحادث الأعشار

ومن الظواهر الجديرة بالتأمل أن تعاليم الحكمة لم تكن معروفة إلا قليلا فى عصر الجاهلية العربية، بل لا تكاد توجد فى الآثار التاريخية لذلك الشعب الذى كان همه الغارات وكأنها كانت تتنافى وصيغه المخلوطة بحمية الجاهلية، فلما جاء الإسلام مجد الحكمة ودعا إليها وذخر الأدب الإسلامى بذكرها ولهج بها الشعراء والكتاب وما أبدع قول الشاعر.

إبدأ بنفسك فإنهها عن غيها : فإذا انتهت فأنت حكيم.

وبعد فكفى الحكمة شرفا أن وصف الله سبحانه ذاته العلية بها فى غير موضع من الكتاب الكريم قل تعالى (إنه عليّ الحكيم)[16] وقل جل

(١٦) الشورى، ٥١.

شأنه (إن الله كان عليما حكيما)[١٧] وقل عز من قائل(وهو الحكيم الخبير)[١٨].

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود ﷺ قل: قل النبى ﷺ: " لا لاحسد إلا فى أثنتين رجل أتاه الله ما لا فسلط هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها"[١٩].

ولعل خير الطرق لا كساب فضيلة الحكمة والتحلى بها أن يؤخذ الناشئ بأفضل أساليب التربية الأخلاقية وأن يريه مربوه ، بالقدوة منهم سمت الحكماء الحقيين الذين يؤثرون القناعة والاعتدال والحق والعدل فى أعمالهم والصدق فى أقوالهم ، ولا يبدون لعينه نقيصة من أخلاقهم فإن الحكمة جوهر كريم لا ينمو فى غير معدنه ولا يحيا فى غير موطنه، فإذا شب الناشئ واستقل بنفسه فعليه أن يتتبع الحكمة فى مصادرها من أقوال الحكماء وفى أفعالهم ، وأن يروض نفسه على اتباع سبيلهم ليكون من الفائزين.

المبحث الرابع

ب- العفـة

فى كتاب الأخلاق المنسوب للجاحظ[٢٠] أن العفة هى ضبط النفس عن الشهوات وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسدو يحفظ عليه صحته فقط وإجتناب السرف والتقصير، فى جيمع اللذات ، وقصد الاعتدال ، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على إرتضائه، وفى أوقات الحاجة التى لاغنى عنها، وعلى القدر الذى لا يحتاج إلى أكثر منه ولا يحرم النفس والقوة أقل منه وهذه الحال هى غاية العفة.

ويقول ابن مسكويه: (أما العفة فهى فضيلة الحس الشهوانى وظهور هذه الفضيلة فى الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأى،

---

(١٧) السناء، ٢٤.

(١٨) الأنعام، ٧٣.

(١٩) متفق عليه

٢٠- التحقيق الذى وصلنا إليه أن الكتاب هو ليحيى بن عدى.

أعنى أن توافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها ويصير بذلك غير متعبد بشئ حتى شهواته.

والعفة أصل لكثير من الفضائل الهامة كالصبر والقناعة والصدق والحلم والسخاء والعدل فى الأخذ والعطاء، ومن حرم العفة لم تقم له واحدة من هذه الفضائل ، فإن من يفقد العفة يصبح كالخنزير النهم لايصبر عن شهوة ولا يثبت على طحن الأيام ولايقنعه قليل ولا كثير ولا يمسك لسانه عن باطل ولا يتورع عن الولوغ فى الأعراض، ولا يستطيع أن يتخلص من تعطش نفسه إلى الإنتقام مما انحطت الوسائل إليه ، كما لا يستطيع أن يسخو عند نداء صوت الواجب فيجود بما يقدر عليه، ولا أن يعدل فى معاملته بل يتمنى لو عاد كل نفع إليه ، واجتمع كل خير لديه العفيف يعطى الكثير إن وجد ويكتفى بالقليل إن فقده ويجازى عن الصنيعة إن استطاع بمثلها أو خيراً منها بالشكر حين يعجز عنها.

وربما وجد من لا يفرقون بين العفة والقناعة لتقارب مدلوليهما ولكثرة ما يقع فى أساليب اللغة من التسامح، ولكن الفرق بين العفة والقناعة فى لسان علم الأخلاق ظاهر بين ، إذ العفة تقتضى ضبط النفس عن جميع الشهوات، وعن كل مالا يليق بإنسان فاضل، فالعفيف تنهاه عفته عن التعرض للمحارم مادق منها وما جل، وعن الخوض فى الأعراض وعن مجارات السفهاء، وعن كل ما يمس الكرامة، وعن مد العين إلى ما متع الله به بعض عباده من زهرة الحياة الدنيا، فالعفة قناعة وزيادة.

أما القناعة التى هى الاكتفاء باليسير من مطالب البدن، فقد توجد حيث لا توجد العفة، فقد يقال على رجل أنه قانع لأنه يكتفى بأقل مطالب البدن، ولكن لا يقال عليه أنه عفيف لأنه لا يعف عن الكذب والغيبة والنمية وأمثالها مما يعف عنه الكرام.

ويرى فريق آخر أن العفة فضيلة ذاتية لا تتغير بتغير الأحوال والأشخاص ، أما القناعة فنسبية ، فإن ما يقنع به صغار الناس وأوساطهم لاتعد القناعة به فضيلة عند الملوك ومن شابههم:كذلك ما يعد قناعة اليوم قد لا يحسن الاقتناع به غدا وبالعكس.

فشاهد ذلك إذ نجد أمرئ القيس وهو لا يزال فى قمة مجده يقول:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليلاً من المل

ولكنما أسعى لمجد سؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وعندما أحس بتقاصر قواه وعجز عن درك آماله قال:

لنا غِنم نسوقها غزار ... كان قرون جلتها العصى

فتملأ بيتنا إقطا وسمنا ... وحسبك من غنى نشبع ورى

أما العفة بالنسبة لجميع الأشخاص والأحوال إما أن يقل هذا الشخص عفيف أو غير عفيف.

ومما تقدم من تعريف العفة فى كتاب الأخلاق المنسوب للجاحظ. وهو تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، ندرك أن العفة لا توجد إلا حيث توجد دوافع الشهوات ويسلط العقل عليها لضبطها كما يجب . أما من لا توجد فيهم دوافع الشهوات كالخامدين الباردين بطبيعتهم من الناس وكالملائكة المجردين من الشهوات بحكم الجبلة فهؤلاء لا يمكن أن يقل إنهم أعفاء إلا على سبيل المجاز كما يقل مثلا، فلان أعف من الملائكة.

الذين يقنعون باليسير كثيرون فى الدنيا، أما الأعفاء فهم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً وهو مصداق الحديث الشريف (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

العفيف يسكت عن الخنا والفحش وهو أحد القوم مقولا وأفصحهم مفصلا[21] ويزهد فيما ليس من حقه ، وإن عضه البؤس بنابه وجرعه مر شرابه يعاف كل خير وراءه المن والأذى.

وينأى بجانبه عن مواطن الصغار ولو كان مصيره العزلة فى رأس الجبل تكبر نفسه حيث تتضاءل كل نفس ويتوارى حيث لا يتظاهر إلا كل نحس ويتكرم حيث يضن كل شحيح ويمنع كل بخيل ، وليس بمانعه ذلك من طلب حقه بالوسائل الشريفة والسعى إلى المعالى من وجوهها المشروعه، وما أبدع قول عنترة.

---

[21]- مفصلا ديرزت نير اللسان.

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى

وقول متمم بنى نويره يرثى أخاه مالكا:

لا يضمر الفحشاء تحت ردائه حلو شما

والعفة شأنها شأن كثير من الفضائل السامية ...

بالتعليم النظرى، ولا تتم فضيلتها بالأمر والنهى المجردين، وإنما هى ... قدوة ورياضة عملية منذ الصغر. فلابد لكى يلقن النشئ فضيلة العفه ويألفها أن يكون عفيفاً قبل كل شيء، ينأى عن الدنايا ويحبس النفس عن نزواتها فلا يعطى نفسه من حاجات البدن إلا بقدر الحاجة الضرورية فى أوقاتها المناسبة، وأن يتعود حتى حين يسره فيحبس النفس أحيانا عن مطالب الفم حتى إذا ما نزلت به الأيام عن مستواه ظل كريم النفس بادى العزة، صم الصبر موفور الكرامة يعرف لنفسه قدرها فلا يتبذل فى مودة عظيم طمعاً فى ماله أو جاهه ، كما يجب ألا يغلو فى العفة حتى يقطع حبل المودة الإنسانية بينه وبين أقرانه . كما شوهد ذلك فى بيوت بأسرها يغلو أفرادها فى الاستعفاف فلا يشار كون الناس مسراتهم ولا يجيبون دعوتهم إلى المأدب والمحافل ولا يقبلون فى نازلة ولا إغاثة فى كربة، فإن هذا خروجا عن سنن الطبيعة الإنسانية وما يجب من حقوق المودة والرعاية.

وإن عفة رب الأسرة عن المحارم لتكون أبلغ درس فى العفة يلقنه لزوجته وأبنائه. وتهاونه فى ذلك يجر إلى فساد بيته وضياع شرفه، ولذلك كانت الحكمة الشريفة عفو تعف، نساؤكم ، وإنه لينذر جدا أن ترى فاجراً من بيت عفيف أو عفيفاً من بيت فاجر، وإن وجد ذلك - على ندرته - فلا بد أن يكون ذلك من تأثير بيئة أخرى غير بيئة المنزل التى هى المزرعة الأولى لبذور الأخلاق والعادات.

وهذا، وأولى الناس بالعفة والحرص على التحلى بفضيلتها إنما هم العلماء والعظماء لأنهم قدوة الدنيا وأئمة الهدى، أقوالهم مأثورة وأفعالهم

منظورة وهفواتهم عظائم ، وزلتهم من أكبر الجرائم، فعليهم أن يعرفوا أقدار أنفسهم لها موضعها من الكرامة، وما أبدع قول حسان بن ثابت ﷺ:

فلا المل ينسينى حيائى وعفتى ... ولا واقعات الدهر يفللن مبردى
وإنى معط ما وجدت وقائل ... لموقد نارى ليلة الريح أوقد
وإنى لحلو تعترينى مرارة ... وإنى لتراك لما لم أعود

وبما ينسب إلى الإمام على كرم ا لله :
صن النفس واحملها على ما يزينها ... تعش سالما والقول فيك جيمل
ولا تدين الناس إلا تجملا ... نبابك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد ... عسى نكبات الدهر عنك تزول

يعز على النفس إن قل ماله ... ويغنى غنى الملل وهو ذليل
ولا خير فى ود إمرئ متلون ... إذا الريح مالت مل حيث تميل

ولبعض العلماء
يقولون لى فيك إنقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دناهم دان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وما أبدع اعتزازة بالعلم إذ يقول:
أأشقى به غرسا والجنية ذلة ... إذا فاتباع الجهل قد كان أحزم

وما أبدع اعتزازه بالعلم إذ يقول:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

وإنه لمن فضل الله علينا أن كانت العفة الكاملة خلق بيبنا ﷺ وخلق أصحابه الأماثل وتابعيهم الأفاضل، وعلماء الإسلام الأعلام . عرفوا بتلك الفضيلة كما تعرف النيرات فى السماء وهى على غاية الصفاء. واستقصاء ذلك يطول، فليرجع إلى تاريخهم الحافل ففية عبرة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المبحث الخامس

أ- العدل

فى كتاب الأخلاق المنسوب للحافظ (وهو على التحقيق ليحى بن عدى) تعريف العدل بانه (القسط اللازم للأستواء، وهو استعمل الأمور فى مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها فى غير إسراف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير). هذا كل ما جاء عن العدل فى هذا المختصر. كذلك "ابن مسكويه" لم يزد عن ذلك كثيراً.

ويلاحظ أن العدل بناء على هذا التعريف يمس جميع الأعمال الإرادية بلا استثناء فهو بذلك يساوى الحكمة ويكون هو والفضيلة الكلية المطلقة . سواء.

أما " أرسطو " فى كتاب (علم الأخلاق إلى نيقوما خوس) فقد فرق بين المعنيين وخص بحثه بالعدل الجزئى الذى هو فضيلة جزئية والتى يتعاطاها الساسة والكافة طاعة للقانون.

وهو يحدد مراده من كلمة العدل بتتبع الاستعمالات اللغوية لكلمة عدل عادل وظلم ظالم ، وهو أن كلمة ظالم تطلق على الأخص ، على من يخص غيره بأقل نصيب من الخيرات ، ويسره فيخص نفسه بنصيب أكبر، وعند تحمل الشر والضرر الواجب تحمله يسلك ذلك[٢٢] وعلى ذلك يتعدى حدود القوانين ويستنتج من ذلك " أرسطو " أن العمل العادل (هو الذى

٢٢- أولا يحمل كل نصيبه الواجب يحمله وهذا يسمى سلبيا كما يقول سانتهير.

يطابق القانون والمساواة) والعمل الظالم هو (قانونى وغير المطابق المساواة) ومنه يعرف من هو ظالم.

ويمضى "أرسطو " فى التحليل فيبين أن جميع الأمور القانونية عادلة بوجه ما ، وأن كل الأفعال التى يقضى بها التشريع قانونية، وكل منها يسمى فعلا عادلا، وذلك لأنها إما توجد سعادة المجتمع السياسى أو بعض هذه السعادة أن تحميها[٢٣].

والعدل فى نظر "أرسطو" أهم الفضائل لأنه يمتاز عن سواه من الفضائل بأنه متعد إلى الغير. وما أشق على نفس المرء من أن يلزمها إنصاف الغير من نفسه وفى تمجيد العدل يقول "أرسطو"، (فما شروق الشمس ولا غروبها بأحق منه بالإعجاب كذلك هو يقسم العدل إلى نوعين عدل اجتماعى وعدل قانونى. أما العدل الاجتماعى أو الترويجى، فهو الذى يلاحظ فى توزيع الكرامات والثروة وسائر المزايا التى يمكن أن تقسم بين أعضاء المدينة.

وفى هذا النوع يلاحظ التباين بين الأشخاص فتتمايز الأعضاء على تمايزهم فى كفايتهم ومراتبهم.

وأما العدل القانونى ويسمى العدل المعوض والوازع، فهو الذى يضبط معاملات الأفراد فيما بينهم.

وهذا النوع لا يراعى في تمايز الأشخاص إذ لا يهم أن يكون رجل قد جرد رجلا عامل الذكر من أحواله أو أن يكون الخامل هو الذى جرد الثانى. لأن القانون لا ينظر إلى الفرق بين الجرائم باعتبار الفرق بين الأشخاص، بل يعاملهم كما لو كانوا على أتم ما يكون من المساواة.

و"لأرسطو" أبحاث من هذا القبيل تشهد بعلو كعبه وطول باعه فى التحليل وتدل على أنه كان فى فهم العدل جد عميق ، ولما كان المقام لا

---

[٢٣]- يتنازل 'أرسطو' عن فلسفته ويتكلم بلسان السياسة فيدعى الصحة التامة للقوانين.

يتسع لها هنا آثرنا الإكتفاء بهذا القدر منها، ومن يرد المزيد فليرجع إلى كتابه: (علم الأخلاق إلى نيقو ما خوس).

ونحن من جانبنا إذا ما نظرنا إلى استعمال كلمة العدل من لغتنا العربية وجدناها، عند الإطلاق. إنما يراد بها العدل السياسى أى معاملة كل فرد من أفراد المجتمع بما يستحق إن خيراً وإن شراً تبعاً لأحكام الشرع الحكيم لمعنى عادل. رجل يؤدى حق الغير من نفسه كلما لزمه، أو ينصف المظلوم من ظالمه إن كان حاكما، والظالم من يفعل عكس ذلك.

وليس يقال على المغتاب والفاسق الذى قد يصل إلى لذاته بغير عنف والسارق والنمام سوى نمام أو مغتاب أو فاسق أو سارق، ولا يقل: ظالم إلا بتجوز ، لأنه تعدى الحدود كما تعداها الظالم فى ظلمه وطرقه المتعددة والخلاصة إن العدل، وإن كان بالمعنى العام يشمل كل عمل إرادى من عبادات ومعاملات، فإنه بالمعنى المتعارف إنما يختص بالمعاملات بين أفراد المجتمع الإنسانى.

وتلك كلمات فى معنى العدل والظلم تساعد على تحديدها بقدر الإمكان، أما عن قيمة فضيلة العدل ومكانها بين الفضائل فإنه كما يقول "أرسطو" بحق أهم الفضائل، أو هو على الأقل من أهمها كما يقول العلامة سانتهلير فى ملاحظاته على "أرسطو".

وإن تتبع التاريخ ليرينا أنه من أقدم ما عرف فى المجتمع الإنسانى فى الفضائل ، بل لا يكاد يوجد شعب أو قبيل - مهما بلغ توحشه - يمكن أن يقل أنه تجرد من احترام العدل واستخدامه لخير الجمعية، فالشعوب التى عرفت المدنية قديما كالمصريين والهنود والصينيين كان العدل يشغل من تاريخها مكاناً عظيما فى الأهمية. وحسبنا النظر إلى الشعب الاغريقى واهتمام فلاسفتهم بأمره، وما أعجب ما جاء عنه فى جمهورية "أفلاطون" وكتاب الأخلاق" لأرسطو".

إن العدل لهو الباعث، الوحيد على ما يشاهده من الجهود الجبارة فى كل مكان وزمان لنصره : الحق ورفع لواء المدينة، وما العروش والإمارات

ومجالس الشورى فى أرقى الأمم قديما وحديثا إلا وليدة فضيلة العدل ونتيجتها.

بل إن التاريخ المجيد كله ليس إلا فضيلة العدل، بل ولولا فضيلة العدل لم يكتب التاريخ ولم يوجد ولم يرتق عن قصص العجائز الخرافية ذات المواضيع الناقصة، ولما كان العدل أو الحاجات الطبيعية للإنسان المدنى بالطبع لم يكن خاصاً بالشعوب المتمدينة كما هو الشأن فى كثير من الفضائل الأخرى"، حتى فى الجاهلية العربية برغم ما كان فيها من العنف كان العدل من أسباب التعظيم والتشريف لحكامها وملوكها.

أما بالنظر إلى الأديان فلا نجد دينا خص العدل بعناية كتلك التى خصه بها دين الإسلام . وحسبنا القرآن الكريم شاهدا على ذلك، فقد دعى صراحة إلى مراعاة العدل فى كل موضع تدعو الخاصة فيه إلى العدل، بل لقدنبه إلى وجوب مراعاته حتى فى معاملة الأعداء والمخالفين فى الدين ، وما أجمل قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)(النساء: من الآية٥٨) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)(النحل: من الآية٩٠) وقوله عز وجل (ولا يجر منكم شنآن قوم على الأتعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى)[٢٤] وأمثل تلك الآيات البينات كثيرة فى الكتاب الكريم.

والسنة المحمدية مليئة بالحث على العدل، ومن ذلك الحكمة الشريفة القائلة (الظلم ظلمات يوم القيامة) (من ملك على عشر رقاب جئ به يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور. وللحرص على العدل لم يترك الكتاب الكريم ولا السنة الشريفة موضعاً إلا وقد وضحت فيه معالم الحق وسبل الإنصاف، وبين فيه خير طريق للمعاملة.

وأحكام المعاملات فى الشريعة الإسلامية كلها تنفيذ للعدل على أتم وجوهه أما ما نراه من رجل الإسلام فى مراعاة العدل فقد بان لنا فى

([٢٤]) المائدة، ٨.

تاريخهم الشئ الكثير منها، وعلى الأخص فى تاريخ الخلفاء الراشدين الذين تلقوا أسمى قدوة فى ذلك من رسول الله ﷺ . فكانوا يقصون الناس فى أنفسهم أو ينصفونهم من أبنائهم وعمالهم ، وإن كانوا على غير دينهم، ويرعون حق الضعيف فيؤدونه إليه كاملا غير منقوص بسماحة الإسلام وبعدل المؤمن، ولو ذهبنا نسوق الوقائع شاهداً على ذلك لما وجدنا متسعاً ولأتينا بالغريب والعجيب فى هذا الصدد

وقبل أن نودع هذا الموضوع الجليل يحسن بنا أن نشير إلى أن التغاضى عن العدل والغفلة عنه رأس كل مصيبة تحيق بالفرد والجماعة وقديما قيل:

لا يأمن الدهر ذو بغى ولو ملكا   جنوده ضاق عنها السهل والجبل

نعم وتلك كلمة حق لاشك فيها، فما أغتيل الظالمون ولاسقط الحاكمون وهدت العروش، ولا محيت الدول، ولا ضربت القرى والضياع، ولا عم الفقر ولا الشقاء إلا حيث يوجد الظلم وينعدم العدل (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة)[٢٥].

الظلم يوغر صدر الابن على أبيه والبنت على أمها والرعية على راعيها فتدب عقارب الفساد وتسعى عوامل الخراب فى تدمير كل ما بنته يد الأمن والعدالة.

ولقد حكى (المأمون) رحمة الله جئ له بشاب أخذه الحرس وقد كتب على حائط الإيواء:

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم   حتى يعشعش فى أركانك البوم
يوما يعشعش فيك البوم من فرطى   أكون أول من ينساك مرغوم

فسأله المأمون عن السبب الذى دعاه إلى تمنى الخراب لقصره، فأجابه الشاب فى حسرة: لقد مررت على ذلك القصر وأنا جائع منذ ثلاث فلو

---

(٢٥) هود، ١٠٢.

أنى وجدته خرابا لما علمت رخامة أو مسماراً أبيعه وأقتات بثمنه ثم أنشد : يقول

إذا لم يكن للمرء فى دولة إمرئ نصيب ولا حظ تمن زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

فلما سمع المامون منه ذلك رقى لحاله وأمر له بما يصلح شأنه.

ويقول " هوبز " إن الإنسان فى عصره الأول، قبل حياته الاجتماعية وفى عصرنا الحاضر لم تنتشر الشوعية ولا الإباحية المدمرة إلا حيث كان الظلم ظلمات وإرهاقاً لا يطاق. ولقد كادت الشوعية أن تعم اليوم على قارة آسيا، وأيضا نصف أوربا بل تسير إلى أبعد من ذلك بسبب التحاسد والتنافس بين طبقات الشعوب المختلفة، وبلغت آخر دركات الفقر والبؤس فى هذه الشعوب، وأخرى بلغت أعلى دراجات الرفعة والرقى والترف والإفراط فى شتى أمور الحية الدنيا، ونسيت أن لها رباً خلقها وتنفضل عليها بالخير والنعم المتعددة، وشريعتنا الإسلامية الغراء حكيمة جاءت إلى الإنسان لتصحح له المسار وترشده إلى أسمى الآيات التى يجب عليه أن يتبعها فى العدل بين الناس بعضهم مع بعض وبين الأمم والشعوب المختلفة وفى الأقطار والأمصار وذلك بإعطاء كل ذى حق حقه ، دون ظلم أوغبن ولا تفرق بين نفس ونفس وجماعة وجماعة ونقول الحق إن العدالة هى العدالة بين الناس جميعاً ، ويوم أن يعم العدل هذا المبدأ العالى السامى بين الناس تسعد البشرية جمعاء ويعم الرخاء أرجاء المعمورة ندعو الله تعالى أن يوفق ولاة الأمر فى كل الأمة الإسلامية، بل فى الإنسانية جمعاء أن ينشروا العدل ويعملوا به إلى يوم الدين.

المبحث السادس

ب- الإحسان

الإحسان فى لغتنا كلمة لها معان مختلفة، فقد يراد بها الإجادة فى الأعمل والحرف ويقل: فلان يحسن علم كذا ولعب كذا وما أشبه ذلك؛ وقد تطلق هذه الكلمة على بسط اليد بالبر والمعروف كذلك.

وأنواع البر والمعروف كثيرة، منها العفو عند المقدرة، ومنها المساعدة بالملل والجاه، وقد تطلق كلمة الإحسان على التصدق على المساكين.

والمعنى الأول وهو إجادة العمل قد لا يكون من الأخلاق فى شئ فكم من نابغ فى عمله وهو من أشر الخلائق وأكبرهم أذى للخلق فهو ليس مقصودنا هنا، وإنما نريد من الإحسان المعانى الأخرى إذ هو الجدير بأن يعد من مكارم الأخلاق.

وقد تكلم الغزالى رحمه الله فى الجزء الثالث من "الإحياء" على العفو والإحسان من غير تفريق بينهما فقل: فضيلة العفو والإحسان وأنه لحق أن يكون العفو إحسانا، ولكن بعض الذين أوتوا الحلم وتعودوا العفو قد ينظرون إلى العفو كأمر واجب والى الإحسان كمرتبة فوق العفو، كما روى أن "المأمون "رضى الله عنه" غضب يوما على غلام له وهم بعقابه فقل الغلام (والعافين عن الناس) فقل: عفوت عنك فقل الغلام (والله يحب المحسنين) فقل: إذهب فأنت حر لوجهه تعالى: وبهذا كان الإحسان عنده إنعاما فوق العفو.

وأى إنعام يساوى العتق من الرق والتمتع بنعمة الحرية؟ وإنه ليحق لنا أن نعرف إحسان المأمون بأنه: بذل المثوبة بدل العقوبة وهو غاية الإحسان .

فضيلة الإحسان تنشأ عن الرفق والحلم ولها مظاهر كثيرة فمن مظاهرها بر الوالدين وبذلك الوسع فى إرضائهما بما لا يخالف قواعد الدين والأدب وهذا ما حث عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)[٢٦] وفيها بر ذوى القربى ومحاسنتهم ومعاونتهم عند الحاجة ومنها الرأفة باليتامى والمساكين والعطف عليهم بمالا يورثهم مفسدة أو يساعدهم على إتيان شر وفي ذلك قوله تعالى (وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)(البقرة: من الآية٨٣) ومنها العفو عن زلات أصحاب المروءات وإذالة عثراتهم والإسراع إلى نجدتهم عندما تحل بهم نكبات الزمن دون أن يكلفوا فى ذلك ذل السؤال وبذل ماء الوجه، وقبل أن يلحظ حلاتهم أو يشعر بحاجتهم أحد إلا من أوتى حظا من الرفق وسمو العاطفة ورقة الحسن، وقد روى أن نصيبا الشاعر أصابته يوما خلة فلم يشعر أحد بحالة فدخل ذات مرة على (عمرو بن عثمان) ابن عفان فعرف (عمرو) من تذارة قميصه تحت ثيابه وسوء حالة فأصلح خلته وأزال عنه بؤسه فقال نصيب فى ذلك.

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى	أيادى لم تمنن وإن هى جلتى
نتى غير محجوب الغنى عن صديقة	ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخف بمكانها	فكانت قذى عينيه حتى تجلت

ومنها إنشاء دور الاستشفاء ومعاهد العلم وما إليها لينتفع بها الفقراء من أبناء الأمة وهذا النوع من الإحسان يعد من أسمى مظاهره وإن لم يكن اسما لفاعل على الإطلاق لدوام نقصه وعموم فائدته على الأمة، ما كثر هذا النوع من الإحسان فى وطن من الأوطان إلا كان بشير التقدم والرضى والنظام وعاد على الأمة بالنجاح والفلاح.

والإحسان خير ما تراضى به الطباع القاسية وتهذب به النفوس الجامحة وتؤثر به القلوب وتغسل به الصدور مما بها من غل.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم	فطالما استبعد الإنسان إحسانا

به عامل (يوسف) عليه السلام إخوته بعد أن القوه فى الجب وباعوه ورموا شقيقه بالسرقة.

---

(٢٦) الإسراء، ٢٣.

ولما رأوا قدرته وسطوته وضعفهم أمامه قالوا: (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)(يوسف: من الآية٩١) فقال لهم: (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)(يوسف: من الآية٩٢)

وبه اقتدى رسول الله ﷺ لما غلب قريشا على (مكة) وأصبح أشدهم له عداوة تحت يده فقال لهم ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا خيرا أخ كريم ، فقال (اذهبوا فأنتم الطلقاء) بل لقد أعطى " أبا سفيان" رأس أعدائه مفخرة لم ينلها يومها سواه فسوى بين داره والكعبة إذ جعلها حرما يأمن داخله . وكان هذا الإحسان داعية لدخول أولئك الأعداء أفواجا تحت لواء الإسلام، ونعم النهج سياسة الإحسان، كذلك يحدثنا تاريخ الفتوح الإسلامية عما كان يجده المسلمون من المعونات التى كان يتقدم بها إليهم طوعا كثيرون من أعدائهم لقاء ما كانوا يصيبون من إحسان المسلمين إليهم ، وأخبار ذلك.

ومنها أن نلاحظ أن هناك عبارات جرت على الأسنة مجرى الأمثل ، وهى لو أخذت على علاتها قد تورث النفس زهداً من الإحسان وشكا فى نتائجه، وما أكثر ما سمع من الناس : (اتق شر من أحسنت إليه) وأكثر من ذلك قولهم:(خيرا تعمل شراً تلقى)، وتوضيح ذلك أن الإحسان إنما تسوء نتيجته عندما تتخطى به مواضعه، إذ ليس كل إنسان يثمر عنده المعروف، كما أنه ليس كل أديم ينبت البذر، وإن الحر الكريم يقتله الإحسان ويسترقه، وإن الوغد اللئيم يبطره الإحسان ويطغيه، وفى ذلك يقول المتنبى:

إذا أنت أكرمت الكريم ماكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كموضع السيف فى موضع الندى

وفى هذا المقام يقول زهير بن سلمى:

ومن يفعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم

وبعض الأدباء يمثلون لما قد ينشأ عن الإحسان من وخيم العواقب بقصة الأعرابى الذى وجد جرو ذئب فى البرية فرق له وأواه وربه على لبن شاه فلما اشتد ساعدة وأعصوصل نابه عدا على تلك الشاة فقتلها فى غيبة صاحبها فلما عاد ورأى مصرعها قال:

بقرت شويهتى وفجعت قلبى وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

كذلك يتمثلون فى ذلك بقول الشاعر:

ومن يصنع المعروف فى غير أهله يلاقى كما لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارة بقسر به من الدر ألبان اللقاح الدوائر
أعد لها حتى إذا ما تمكنت فرته بأنياب لها وأظافر

وأم عامر كنية الضبع، وكان بعض الأعراب قد صنع بها ما صنع صاحبه السالف الذكر مع الذئب، فلما قويت واستوى عودها واشتد باسها، وثبت عليه وهو نائم فقتلته.

وفى هذا النص تجد قصة طريفة للشاعر الفرنسى الشهير لافونتين نظمها فى ثعبان رآه طفل صغير فحمله بين يديه وهو يكاد يموت من الجليد، والحنو عليه، ادفئه بالنار حتى أفاق وتقلب وبرقت عيناه يلتهب الشر، فأبصر به والد الطفل فأسرع ورمى الثعبان ودق رأسه وقل:

أحذر لئيما لقيته ولا تصنع المعروف فى غير أهله

ولبعض الناس فى الإحسان مذهب آخر يمكن تلخيصه فى قول القائل:

وما خاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سوق

وقول غيره:

إزرع جميلا ولو فى غير موضعه ما خاب قط جميل إينما زرعا

وقول غيره:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ونحن من جانبنا نؤكد أن الإحسان لا يصلح الفوضى ولا يثمر إلا بالتبصر، ما أكثر من يفسدهم الإحسان بين أبناء المجتمع فيتعودون حياة البطالة والإثم والسفالة، ولو نظم الإحسان وقصد به مواضعه الجديرة به لتم للمجتمع من السعادة نصيب لا يستهان به نسأل الله تعالى التوفيق.

المبحث السابع
الوفاء بالوعد

الوفاء بالوعد خلق كريم نشأ عن الصبر والشجاعة. ومن لم يظفر بتلك الخصال الطيبة لم يكن أهلا للوفاء الذى كثيراً ما يتطلب التضحية وبذل النفس والنفيس وفى كتاب (الأخلاق) ليحيى بن على (وينسب للجاحظ) كلمة طيبة فى الوفاء إذ يقول (وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويرهن به لسانه، والخروج به إلى الحيلة ضمانا للحق وإن كان مجحفا به . فليس يعد وفيا من تلحقه بوفائه أذية وإن قلت وكلما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان أبلغ فى الوفاء ، وهذا لخلق محمود لينتفع به من كان مقبول القول كان عظيم الجاه، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخاق أكثر وحاجتهم إليه أشد

والذين عرف منهم فلة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم أغراضهم ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم أ.هـ

ونحن نرى هذا الكلام هنا جدير بالاعتبار والقبول.

والغزالى يرحمه الله يجعل الوفاء بالوعد ضربا من الصدق. وهو يقسم الصدق إلى ضروب. ويقول " الصدق الرابع " الوفاء بالعزم فإن النفس قد تنجو بالعزم فى الحل إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ولا مؤنة فيه ، فإذا حقق الحقائق وحصل التمكين انحلت العزيمة لغلبة الشهوات لم يتحقق الوفاء بالعزم وهذا أيضا الصدق فيه. ولذلك قل تعالى: (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)(الأحزاب: من الآية٢٣) وقد روى عن أنس أن عمه أنس ابن النضير لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقل . أول مشهد مع رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرينى الله ما أصنع، فشهد أحدا فى العام القادم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقل يا أبا عمر إلى أين ؟ فقل: واها لريح الجنة انى أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد فى جسده بضع وثمانين ما بين ضربة ورمية وطعنة فقالت أخته: ما عرفت أخى إلا بثيابه، فنزلت هذه الآية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ)(الأحزاب: من الآية٢٣) وقل مجاهد. رجلان خرجا على ملأ من الناس قعودا فقالا: إن رزقنا الله تعالى لنصدقن به ، فنزلت (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)(التوبة:٧٥) ، (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)(التوبة:٧٧)

والغزالى رحمه الله على حق فى عد الوفاء بالوعد من الصدق لأن الصدق يوجد كلما وجد الوفاء بالوعد.

وفى كتاب الأخلاق (للأستاذ عبد الرحمن زغلول رحمه الله) ملاحظات على هذا الخلق جديرة بالتقدير (إنك إذا وعدت انسانا بشئ فقد ترتب على موعدك مصالح جاءت من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى). ولهذا ينبغى الوفاء به فقد تحدث حاجة لا تعلمها لمن أتفقت معه على المقابلة ويعلقها على حضورك فلا يحل لك أن تخلف الوعد.

إذا لم يكن غير أن تذهب الثقة بك حين تعتاد الخلف وأن تدعى كذابا وتذيق منتظريك مرارة الانتظار فهذا كاف لجعل الوفاء محتما عليك.

الوفاء فى الجملة لازم لسعادة المجتمع البشرى وثقة الناس بعضهم ببعض وسير الأعمال فيم- بينهم سيراً حثيثاً، وحصول التعاون، هب أن الناس كلهم أخلفوا مواعيدهم ، هذا التاجر الكبير مع صغار التجار الذين يأخذون منه وهم معه، وهذه المصانع مع عمالها فى عدم دفع أجورهم "وهؤلاء المدينون مع دائنيهم ، وهذه المخابز مع البيوت التى وعدتها بتفريق الخبز عليها يوميا أليس معنى هذه الحيرة؟ أفلا تكون النتيجة بطلان جميع المعاملات المترتبة على المواعيد ؟

والمؤلف يذكر قصة رجل من خيرة بلدته استصنع مرة أحد الحذائين حذاء فلم يوف بوعده فجاء العيد والمستصنع بغير حذاء فغضب لذلك أشد الغضب ووقع بينه وبين الصانع نزاع جر إلى تفرقة بين بلديهما إنجلت فى النهاية عن جرحى من الضرب العصى والبنادق ، وعن عدد كبير ذهب إلى السجن ضحية لخلف الوعد وبقيت بعد ذلك الشحناء بين البلدين لا تزول وتعمقت جذورها فى الصدور وحل الفساد والدمار محل التعاون والإيثار والصدق والإخلاص، والوفاء بالوعد فضيلة تصلح لأن يمدح بها الأنبياء كما قل تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً) (مريم:٥٤)

ومدح كافة المؤمنين قل تعالى: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)[٢٧] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٢٨]

والله تبارك وتعالى قد ذم المخلفين وعاتب المؤمنين على التعرض لخلف الوعد (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) (الصف:٢-٣) وفى السنة الشريفة (آية

(٢٧) البقرة، ١٧٧.
(٢٨) المؤمنون، ٨، ٩، ١٠، ١١.

المنافق ثلاث وان صام وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب، وإذا وعد اخلف، وإذا أؤتمن خان) أهـ

والحق أن خلف الوعد رذيلة تدل على سقوط خلقى شنيع ، وتقدم عنواناً سيئاً لصاحبها جديراً بالاحتقار والامتهان وكفى بها حقارة أن العرب حتى فى جاهليتها كانت تأنف وتعار منها وتحرص على فضيلة الوفاء بالوعد كل الحرص ويتمدح بها بعض شعراؤهم وخطبائهم.

ونوجد نحن أمنعم ذماراً وأوفاهم، إذا عقدوا يمينا

ولقد بلغ من إكبارهم لتلك الفضيلة أن أقاموا لها مثلا[٢٩] يضرب بهم المثل فى الوفاء، ومنها السمؤل بن عاديا الذى طلب منه خصوم أمرئ القيس بأن يسلم اليهم سلاحه وودائعه أو يضربون عنق ابنه وكان السمؤل قد امتنع عنهم بحصنه وكانوا قد ظفروا بابنه خارج الحصن ، فأبى وفاء السمؤل الا أن يرى عنق ابنه تضرب ورأسه تطيح ثمنا للوفاء بالعهد وفى ذلك قال:

وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ماذام أقوام وفيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا وبئرا كلما شئت استقيت

وأوصى عاديا يوما بألا تهدم ياسموءل ما بنيت

ولهذا المظهر النبيل من الوفاء بقى المثل المشهور إلى اليوم (أو فى من السموءل)

ومن طريق ما جاء فى هذا الباب أن "النعمان بن المنذر، كان له يومان يوم بؤس لا يظفر فيه بأحد إلا قتله ، ويوم نعيم لا يصادف فيه أحد إلا أنعم عليه، فظفر يوم البؤس برجل أخذ بعيداً عن ديار قبيله فلما قدم للقتل طلب مهلة ثلاثة أيام يذهب فيها ليرى أهله ويرجع ليقتل فطلب لذلك منه كفيلا بذلك فنظر الرجل إلى وجوه الحاشية لعله يجد ذا مروءة يكفله، وبعد لأى وقع اختياره على " شريك بن عمر من بين " الحاضرين

٢٩– بضم الميم جمع مثال:

ومدحه بأبيات غاية فى الرقة فخجل "شريك" وكفل الرجل على أنه إذا غاب عن الموعد المحدد تقدم هو ليقتل بدله. وذهب الرجل وغاب ثلاثة أيام وجاءت ساعة الموعد وقدم "شريك " للتقل. وأسف القوم على" شريك" أن تكون هكذا خاتمته. وجعلوا يتطلعون إلى الطرق من ناحية، وإذا بشخص يلوح من بعيد تحت الغبار مقبلا فى أشد ساعة عرفت فأخروا "شريكا " حتى ينجلى خبره، وبعد قليل تبين أن الرجل قد حضر وفاء لوعده فعجب الناس لهذا الوفاء وكأنما أخذوا بغاشية، ومن بينهم الملك الذى عجبه بقدوم الرجل أشد من عجبه بإقدام "شريك" على كفالته ، فسأل "شريك" لم كفلته؟ فقال : حذر أن يقال ذهبت المروءة من الناس ، وسأل الرجل لم أقدم على القتل بالحضور ؟ فقال حذر أن يقال ذهب الوفاء من الناس فقال الملك : وأنا عفوت عنكما لئلا يقال ذهب العدل والعفو من الناس، ومن ذلك اليوم أبطل الملك تلك العادة الظالمة .

وكما أتخذ العرب مثلا للوفاء اتخذوا كذلك مثلا لخلف الوعد ، وأظهر تلك المثل وأشهرها " عرقوب " وأسمه صخر بن معد بن أسد ، من العمالقة، وكان أكذب أهل زمانه ، أتاه سائل فقال: إذا أطلع نخلى ، فلما أطلع قال : إذا أبلح فلما أبلح قال : إذا أزهر فلما أزهر قال : إذا أرطب فلما أرطب قال : إذا أتمر، ثم جذه ليلا ولم يعطه شيئا ، فقال فيه الشاعر :

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وما أبدع قول كعب بن زهير :

ولا تمسك بالوعد الذى وعدت إلا كما تمسك الماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

ومما يدل على مدى حب العرب لفضيلة الوفاء أن "لبيد بن ربيعة" أحد أصحاب المعلقات بل صاحب أجود المعلقات على الإطلاق وأحد المخضرمين والمعمرين الذين أدركوا الإسلام على كمال وصلاح ومروءة ، ولما أحس بدنو أجله لم يختر لتأبينه إلا بيتا واحدا جامعا لأشرف ضروب الوفاء إذا يقول :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهمـا وهل أنا إلا من ربيعة او مضـر
فإن حان يوما أن يموت أبوكما فلا تخشما وجها ولا تحلقا شعـر
وقولا هو المرء الذى لا حليفة أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى سنة ثم السلام عليكمـا ومن يبك حولا كاملا فقد اعتـذر

ألا ما أبدع ما أختار (لبيد لوصفه) (هو المرء الذى لا حليفة أضاع ولا خان الصديق ولا غدر) أليس فى ذلك أنبل رثاء بعد الفخفخة والطنطنة والتهويل؟ وهو مع ذلك يقدم صورة نفس حوت أنبل خلال الدنيا ، رحم الله لبيدا وأحسن إلى كل مَن وفى بعهده ، وحفظ الله أهل الوفاء أينما كانوا ، وهكذا يكون الوفاء لازما وفضيلة كبرى لسعادة الناس جميعا فى الدنيا والآخرة .

الفصل السادس
المبحث الاول
الفضيلة والرذيلة

الفضيلة كلمة طالما ترددت على ألسنة الفلاسفة والعلماء من قديم الزمن حتى اليوم ، دون أن يجمعوا على تحديد معناها .

الشعراء والظرفاء يفهمونها فهما يطابق أهواءهم ونفوسهم المرحة[٣٠] والعلماء والفلاسفة ، إلا قليلا منهم يشربونها معنى التنطع والتزمت والاعتداد بالنفس ، بل هى من الصرامة والقسوة أحيانا كما شوهد عند الرواقيين بمكان .

وقديما كان السوفسطائيون يدعون أنهم معلموا الفضيلة ، ويفهمون من الفضيلة أنها كمال استعداد كل كائن فيما خلق له ، ففضيلة السياسى كما له فى المهارة السياسية وفوزه من اى طريق ، وفضيلة الرائض مهارته فى تدريب الخيول، كما أن فضيلة الجواد استعداده للسبق ، وفضيلة السكين فى تمام استعدادها للقطع .

أما سقراط ، فقد أشرب الفضيلة ، معنى الخير الأعلى وقال : (إنها المعرفة أما الرذيلة فهى الجهل ، وأما ، أفلاطون ، فقد زاد على مذهب أستاذه هذا بأن ادخل فى معنى الفضيلة عنده تعادل قوى النفس ، وعرفها بأنها " هى توافق العادة والعقل " .

وجاء "أرسطو" تلميذ "أفلاطون" فرأى أن لا ينظر إلى الفضيلة فى معناها النظرى العقلى المثالى بل رأى أن يجعلها ذات علاقة بالأشياء العملية، فالفضيلة لا تتكون ولا توجد إلا بسلوك خاص فى الأعمال ، كالشجاعة والصبر والعفة وأشباهها ، وهى عبارة عن سلوك عملى خاص ، وهو يقول فى كتابة علم الأخلاق إلى "نيقوماخوس" : وأما الفضيلة

---

[٣٠]) كانوا يعدون من يحاربهم فى لهوهم وحرصهم ويشاركهم فى مجالسهم أنسهم وسمرهم أجدر الناس بأن يوصف بالفضل وعلى الأظهر عندما يكون له نصيب من الأدب وحظ من الفن ومحبة الجمال .

الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادات والشيم ويقول أيضاً : "وبالاختصار فهى الملكات ، وبعد بحث طويل فى تحليل مكونات الفضيلة ومظاهرها يصل "أرسطو" إلى أن الفضيلة (هى القوة التى تصرف أمورنا تلقاء اللذات والآلام بحيث يكون سلوكنا أحسن ما يمكن) (والرذيلة ضد ذلك) .

وبعد أن أبان "ارسطو" عن فضائل كثيرة من الأشياء كاستعمل قوة البصر فى العين وقوة التحمل والعدو فى الحصان خلص إلى أن الفضيلة فى الإنسان هى تلك الكيفية الأخلاقية التى تصيره رجلا صالحا ، رجل خير ، والفضل فى أنه يعرف أن يؤدى العمل الخاص به .

وهو يرسم حد الفضيلة باتباع الوسط فى كل عمل ، ومجانبة اللغو من تفريط وإفراط على ما هو مشهور من نظريته الأخلاقية .

وكان الرواقيون يرون أن الفضيلة (هى منطق الإرادة) (هى التوفيق بين الإرادة والعقل توفيقا منطقيا محكما) والفضيلة عندهم لا تتجزأ فإما فضيلة كاملة ، وإما لا فضيلة ، فالإنسان الفاضل هو الحكيم الكامل المتزن الذى لا ينظر إلى الأشياء الدنيوية فى قليل ولا كثير بأى نوع من الاهتمام ، (الفضيلة هى حكمة النفس وعلمها وصبرها وغايتها) وما عدا ذلك فلا قيمة له ، ومن حرم الحكمة السامية حرم الفضيلة وإن أتى بأشرف الأعمال وأحسنها فى نظر الناس .

وفى العصور الوسطى ، أيام سيطرت الكنيسة على الحياة كانت هى الطاعة التامة ، والخضوع والاستسلام دون قيد ولا شرط لتعاليم المسيحية المزيفة وفى كثير من عصور الإسلام كان بعض الفلاسفة ومشايعوهم يرون الزهد أسمى مراتب الفضيلة .

و"ابن مسكويه " لا يعجبه هذا الرأى بل يجبهه بجرأة وصراحة ويذهب فى الفضيلة مذهب أرسطو العملى

غير أن ابن مسكويه ، من فلاسفة الإسلام الإشراقيين الذين يرون الفضيلة (كمال المعادن النظرية والوصول بالتفكير والتعامل إلى الاتصل بالنور الأعلى) .

أما تعاليم العصور الحديثة فهى أميل إلى إيثار مذهب (أرسطو) إذ جميع تعريفاتهم للفضيلة لا تخرج عن أنها عادة السير على مبادئ الأدب وإرادة الخير ومجانبة الشر ، والبعض يعرفها بأنها إتباع ما يجب كما يجب بإرادة ثابتة لا تتزعزع، والواجبات اليوم بينة محدودة يسهل معرفاتها وإنما الصعب هو تعود طاعتها كما يجب .

أما الرذيلة فهى ضد الفضيلة فى كل التعاريف فلا صعوبة فى إدراك حدها .

وقد تطلق على الأعمل الطيبه التى هى ثمرة الفضيلة النفسية ، فيقال الصبر فضيلة ، والشجاعة والحلم فضيلة وهكذا .

وقد يقل رجل فاضل لمن تكونت عنده عادة عمل الخير ، ويقل عمل فاضل للعمل المطابق لقوانين الأدب .

المبحث الثانى
الفرد والمجتمع

تحديد علاقة الفرد بالمجتمع ومكانه منه موضوع هام عنى به الكثيرون من الأخلاقيين وعلماء الاجتماع والمصلحين ، وكان له فى الشرائع السماوية مكانه الملحوظ .

والبحث فى هذا الموضوع يمس ناحيتين أساسيتين :

الناحية الأولى : طبيعة الإنسان نفسه وفطرته اجتماعية هى أم فردية.

والناحية الأخرى : هى مدى هذه العلاقة وما يجب أن تكون عليه بالفعل وكما يراها الأخلاقيون والمشرعون وعلماء السياسة والاقتصاد ومن إليهم من الباحثين وكما أوصت بها الأديان السماوية .

أما الناحية الأولى : فيرى "أرسطو" ومن تبعه من الأخلاقيين أن الإنسان مدنى بطبعه ممتاز دون سائر الكائنات الأرضية بمزاياه الخاصة به من أجل فطرته ، وبعض اصحاب المذاهب الفلسفية الوضعية الحديثة ومن بينهم "هويز" وأصحاب فلسفة التطور والارتقاء لا يؤمنون برأى "أرسطو" هذا ، فالإنسان لم يكن ، حسب رأيهم ، أكثر من حيوان متوحش بأصل فطرته اضطرته إلى التجمع غريزة الدفاع عن نفسه ضد أعدائه ومنازعيه فى البقاء ، إما من أمثاله وإما من عوادى الوحوش الأخرى ، وإما من عوادى الطبيعة وكوارثها.

(لم يكن إلا ذئبا على أخيه الإنسان) أما ادعاء "أرسطو" أنه اجتماعى بطبعه فهو ادعاء جدير بأن يكون النمل والنحل أولى به من الإنسان.

أما عن الناحية الأخرى : فإن من يتتبع تاريخ المجتمعات الإنسانية يجد من العصور القديمة أن بعض الفلاسفة كانوا يجتمعون فى تعاليم نحو المذاهب الفردية اذ لم تكن نزعة "الجماعية" إذ ذاك مفهومه تمام الفهم واضحة تمام الوضوح ، كان السكلبيون يميلون إلى "الفردية" إلى حد دعواهم أنهم بتعاليمهم إنما يحررون الفرد من كل التزام اجتماعى حتى نحو أسرته ونحو وطنه ، بل لقد حاولوا أن يحرروه من كل حاجة ومن كل شهوة ، ومن كل وهم ومن كل تردد.

أما "الأبيقوريون" والرواقيون ، ومن بعدهم ، وإن لم يصلوا إلى هذا اللغو فى الفردية ، فإنهم كانوا يجعلون نصب أعينهم ، قبل كل شئ أن يصيب الفرد بتعاليم الحكمة التى يشرعونها له السلام الروحى والاطمئنان الذى لا يتأثر معه بأى مؤثر او مكدر يحل به ، وألا يكون للعالم الخارجى على نفسه أية سلطة ، وأن يتحرر بقدر فى علاقته بمجتمعه.

ولقد نعى الأستاذ "سانتهلير" فى مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو على الرواقيين غلوهم فى الاستقلال وإغراقهم فى اعتماد الفرد على ذاته حتى رماهم الآخرون بأن إنسان الرواقيين يكاد يتصور نفسه إلها ليس بينه

وبين الإنسانية نسب ، وأنه يفر من الجماعة التى هو منها لأنه لا يكاد يجد منها من يماثله او يدانيه .

أما الأبيقريون فكانوا على تواضعهم وإقرارهم بنقص الإنسانية وحاجتها إلى أعراض هذا العالم الفانى ، يحاولون أن يوفروا بتعاليمهم للفرد حياة هى أبعد ما تكون عن العالم ، ولكى يطبقوا قاعدتهم المشهورة فى اللذة والألم نصحوا بأن يقلل الفرد ما استطاع من حاجاته وشهواته وعلائقه بهذا الأمر حتى لقد أحجم "أبيقور" صاحب المذهب عن حياة الأسرة لأن حساب اللذة والألم رجح فى عينه كفة التحرر عن علائقها وآلامها كان يقول : "بقليل من الخبز والماء أشاطر الآلهة سعادتهم " وكان ينصح تلاميذه بالابتعاد عن السياسة لما فيها من تكدير الحياة .

وعلى العموم كان جميع الفلاسفة القدماء يقررون أن من أهم الخواص الأساسية للحكمة أن يكون فى طاعة الفرد الاكتفاء بنفسه أما تعاليم العصور الحديثة فإنها بالرغم من وضوح العلائق الاجتماعية ومدى أهميتها ، لم تخلو من نزعات نحو "الفردية" عرفت عند الفوضويين من أمثال "ماكس سترز" او عند أصحاب المذهب العقلى الأريسطوقراطى الذى أسسه "يستشه" الفيلسوف الألمانى الشهير .

أما "ماكس ستزر" فكان يقرر أن الفرد هو كل شئ وأن الجماعة ليست بشئ كان يقول ، ما هذه الشخصية التى تسمونها الناس إنها الجماعة - لكن هل لهذه الجماعة من جسم - نعم نحن الذين نكون جسمها - وأنتم لستم جسما واحدا ؟ أنت جسم وأنت . كذلك .

نعم ، أنت أيضا جسم ، وأنت كذلك جسم ، ولكن أنتم جميعا أجسام عدة ولستم جسما واحدا، وإذن تكون النتيجة أن الجماعة تملك أجساما لخدمتها وليس يقل إن لها جسما واحدا يخصها .

وأما "نيتشه" فيرى أن لكل كائن ميلا إلى أن يحيا ذلك الميل الذى يحمله على أن يدعم حياته على حساب الآخرين ، وعلى أن يبسط عليهم سلطاته ، وهذه الظاهرة التى هى "إرادة القوة" إنما تظهر على الخصوص

فى الأفراد ذوى السلطان الأعلى ، أولئك الذين لهم الحق المطلق فى أن يرقوا وأن يسودوا على سواهم ، وهم أصحاب الحق وحدهم بأن يوصفو بالإنسانية ولهم وحدهم يعمل بسواهم من سائر الكائنات .

وأن الأخلاق الجديرة بهم إنما هى أخلاق قاسية لا تعرف الضعف ولا الرحمة ، وإنه لمدعاة للأسف عند "نيتشه" أن هذه الصورة الطبيعية السليمة قد شوهت قيمتها الحقيقية بلوثة التعاليم "اليهودية" والمسيحية تلك التعاليم التى جاءت مبشرة بالإنسانية ، وبالمرض ، وبالفقر ، وحب المرء وأعدائه .

إن الأخلاق الصحيحة هى أن يطلق الفرد لقوته العنان دون زاجر او وازع ، وإن اقتضى انتصاره أن يسير إلى غرضه فوق طريق من جماجم البشر .

ويرى الاجتماعيون أن الفرد فى ذاته ليس بشئ ، وأن الجماعة هى كل شئ فى الحقيقة وانفراد المرء بنفسه جدير بأن يقضى على جميع مزايله الطبيعية والعقلية، وقد كان من أكبر أنصار هذه النزعة الفيلسوف الفرنسى الشهير "أوغست كونت " الذى نعاعلى أخلاق العصور القديمة نزعتها الفردية وجعلت لكل مؤمن حق التفكير فى منفعته الخاصة ، بينما الفلسفة الوضعية إنما تجعل وجهتها مصلحة الجماعة ، وهو لا يعترف للفرد فى الرقى الاجتماعى بأكثر من أنه عامل غير مباشر ، أما الجماعة فهى العامل المباشر ، وإذا كان الفرد يتحرك فإن الجماعة هى التى تقوده ، كما أنه يرى القاعدة الأخلاقية الأساسية الصحيحة إنما هى الجماعة ، إنها العيش من أجل الأغيار ، وأن الفضائل الشخصية نفسها لم يكن لها من الاعتبار أكثر من أنها تعد المرء خير إعداد لخدمة المجتمع .

وقد أيد "دور كيم" هذه النزعة وقل : إنه حتى ، الواجبات التى تجب على المرء نحو نفسه إنما هى فى الحقيقة واجبات نحو الجماعة ، وهو يرى أن الضمير الأخلاقى العام لم يعتبر يوما ما ، العمل الذى يخدم به الفرد حياته الخاصة وحدها عملا أخلاقيا ، حقا إنه من المعترف به أن عمل

الشخص للحياة قد يكون أخلاقيا ، ولكن هذا مشروط بأن يكون قصده من عمله أن يحيا من أجل أسرته أو من أجل وطنه ، وأما حين يقصد مجرد شخصه فإن الرآى العام لم يعتبر عمله من الأخلاق فى شئ.

وإذا كان من الواجب على المرء نفسه أن يتكمل بالعلوم والمعارف ويتجمل بالفنون ، فإن عمله هذا ما كان قصاراه أن يحوز - به الشهرة وما إليها من المنافع فلن يكون له قيمة أدبية ، وأنه لن يعد عملا أخلاقيا إلا حينما يقصد به صالح الأغيار .

تلك صورة يمكن أن تجلى لنا وجهة كل من هذين المذهبين المتقابلين مذهب (الفردية) ومذهب (الجماعة) والحق أنه لمن الغلو أن نكون فرديين إلى حد إنكار الجماعة ، او جماعيين إلى حد اطراح الفرد وإهماله تماما .

إن النزعة الأولى فوضوية أنانية لا يتم معها للإنسانية تقدم ولايستقيم معها قصد .

والنزعة الأخرى نازية فاشية تجعل من الفرد آلة مسخرة تساق بيد من تدرى ومن لا تدرى ، والى حيث تدرى ، وحيث لا تدرى ، وفى هذا ما يجعل من أفراد المجتمع أرقاء يسامون الخسف إلى حد التبرم بالحياة ، ويخلق منهم خلقا تعيسا قد تجره تعاسته إلى الثورة النفسية والتحلل من الروابط الأخلاقية والقوانين التى فرضها مجتمع بغيض إلى هذا الحد باسم الجماعة ومجد الأمة ، والحد الوسط فى هذا هو أن توفق بين صالح الجماعة فلا نبيح للفرد التلاعب بالجماعة والتحلل من قيودها وروابطها، وكذلك لا تبيح للجماعة إهمل الفرد والتضحية به ، بدون قيد ولا شرط ولا قاعدة ، لضمان سلامة الجماعة ودعهم وقوتهم ، وهذا الوسط هو ما يسمى فى اصطلاح البسياسيين بالديموقراطية ، فيه تكفل الجماعة للفرد أمنه وحريته ومرافق عيشه ووسائل رقيه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وفى مقابل هذا يتعهد المرء بالمساهمة فى صالح الجماعة وبكل ما يعود عليها بالفلاح والقوة والرقى يطيع ما يسن لها من القوانين والشرائع ، ويضحى ، إذا مادعت

دواعى التضحية ، بكل وسيلة وبكل ما يملك من نفس ونفيس إذا ما أصبح مجتمعه فى حالة حرب تهدده بالانتقاص او بالزوال ، ومن يرد الوقوف على أسمى التعاليم الديمقراطية التى عرفت فى تاريخ الإنسانية كلها فلينظر إلى تعاليم الدين الإسلامى الحنيف لكى يجد العجب العجاب فى هذا الباب .

لقد عنيت الشريعة الإسلامية السمحة وتعاليمها السامية بالفرد كما عنيت بالجماعة ، وعنيت بالجماعات الصغرى كما عنيت بالجماعات الكبرى ، لم تنظر للإنسان إلا على أنه لبنة فى بناء المجتمع ، ولا إلى الجماعة إلا على أنها مكونة من الفرد قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[٣١] . وفى الحديث (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[٣٢] .

وعلى هذا الأساس الوطيد الذى يربط الفرد بالمجتمع جاءت تعاليم الدين الإسلامى مفصلة شاملة مبينة كل ما عسله أن يكون مرشد لأبناء الإنسانية فى سلوكهم وعلاقة بعضهم ببعض ، فى المعاملات المالية وتوثيقاتها وطرق الشهادة عليها والحكم فيها ، والحث على تحرى العدالة فى كل صغيرة وكبيرة من أمرها، ونظام الأسرة وقواعده الذى يجب ان يشاد عليها وشروطه الكفيلة بدوام الروابط الأسرية قوية متينة ، ونظام الأمن ، وقواعد المحافظة على الدماء الإنسانية الذكية ، وطرق الاحتكام فيها ، ولعن المنتهكين لحرماتها ، واحترام الشخصية الإنسانية التى كرمها الله وفضلها على كثير ممن خلق ، ومعرفة ما يجب لها من تقدير ذاتى مهما كان حظها من

(٣١) سورة الحجرات،١٣ .
(٣٢) الحجرات، ٩.

الجمال او الثروة فلا سخرية ولا استهزاء ولا همز ولا لمز ولا تنابذ بالألقاب مما قد يثير عوامل الحقد والبغضاء والتقاطع وتدمير بناء الجماعة وأن فى احترام البيوت ومنع اقتحام أبوابها قبل الإذن بدخولها لأروع دليل على تقدير الفرد فى نظام الشريعة الإسلامية السمحة ، وعلى ما أسدت إلى الشخصية الإنسانية من تقدير وإعظام وعطف واحترام ، ومن أظهر أدلة ذلك الاحترام توفير الحرية للأفراد ومنع كل ما عسله أن يسلبهم هذا الحق عندما ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

ثم نظام التعاون والتراحم والتساند فى كل ما هو خير للفرد والجماعة أن فى سلمها وأمنها ، وآن فى حربها وخوفها ، وتعاليم الإسلام فى هذا الباب فريدة فى بابها تعلوا عن المثل وتعز عن النظير .

الفصل السابع
المبحث الأول
المذاهب الأخلاقية

تاريخ نشأتها

إذا كان تاريخ الفلسفة لا يزال يعانى غموضا واضطرابا حول مسائل التفكير الفلسفى للأمم القديمة وحول إثبات أيها أعظم إنتاجا وأقدم تاريخا فى الأحوال فيه أن التفكير الفلسفى الأخلاقى على مستوى المذاهب النظرية الكاملة لم يعرف لأمة قبل اليونان، بما أتيح لها من فرص فى القرون الأخيرة من تاريخها من قبل الميلاد.

وحتى اليونان نفسها، على الرغم من الحركة الثقافية الحديثة التى نقلت على مختلف الفلسفات الشرقية القديمة ورغم هذه الثورة الفكرية التى نشأت فى ربوعها وغزت العالم عبر القرون، لم تكن هى نص ما كتب لثقافتها العلمية والفنية والفكرية من الذيوع والشهرة.

وبالنسبة لفلسفة الأخلاق، على الخصوص، لم تعرف فيما قبل سقراط على أية صورة، يمكن تعد داخل الإطار المذهبى، ومن أجل ذلك يمكن أن تعد المدرسة السقراطية الأصيلة ممثلة فى سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو، أول مدرسة أخلاقية فلسفية منظمة عرفتها الإنسانية عبر التاريخ.

ولعل نشأة هذه المدرسة فى ذلك الدور من تاريخ التطور للشعب اليونانى كانت شبه طفرة وسط الخضم الجاهلى الوثنى الذى لم يستقبل أضواءها إلاكما كانت تستقبل الخفافيش أضواء شمس ساطعة تجعلها مذعورة تبحث عن عالم من الظلام تبقى فيه هادئة وادعة، وآية ذلك الجفول بالقلق لم يؤجل قبل أن يخر سقراط صريعا فى سبيل رسالته الخالدة الأضواء.

وجهتها ومقاصدها :

يكاد الأخلاقيون كلهم أجمعون يتفقون على أن الغرض الذى يقصدونه ، سواء صرحوا بذلك أم أفهمونا إياه من ثنايا كلامهم ، إنما هو محاولة حل موفق وإيجاد سبيل معبد تسير فيه الإنسانية نحو سعادتها بعيدا عن الخوف والقلق ، وهم يتفقون جميعا على أن الإنسانية كلها إنما تطلب من وجودها ، وفى جهودها ، ومن نشاطها الفكرى والجسمانى شيئا واحدا هو ما يسمى بالسعادة ، تلك هى نقطة الاتفاق ولكنهم لم يتفقوا إلا ليبدأوا خلافاً متشعب الأطراف متفرق الطرق ولا يزالون طرائق قددا .

إذا كانت السعادة هى بحق مقصد الإنسان الأعظم فى حياته وباعثه ودافعه وحافزه الأول فما حقيقة هذه السعادة ؟

رأى ناس : بكل ما فيهم من سذاجة وصراحة أن السعادة هى اللذة التى يجدها كل وضدها الألم الذى يعرفه كل ذى حس .

ورأى أخرون : أن الرأى الأول وإنما هو إفراط فى الإنسانية وعبادة الذات وأنه غفل عما بداخلنا من ميول أخرى أعلى أفقا وأعظم نصوعا ذلك هو الايثار والشعور بآلام الآخرين والتألم لهم ، والشعور بسعادتهم والسعادة بها (المشاركة الوجدانية) .

ورأى آخرون : إنه الأثرة دائما والايثار دائما يمكن أن يحصل السعادة للكائن الإنسانى ، فرب أثره جرت على صاحبها أفظع [illegible] ات كما ينجلى ذلك لنا فى قصص السلوك الإنسانى والسياسية المروعة ، بل رب إيثار كان شرا على من أثرهم ، ورب رحمة كانت شرا على فاعلها وندما، وكانت على من فعلت به مفسدة وتذليلا وخروجها به عن سبيل الأمن والفلاح ، إن السعادة إنما هى فى التزام هدى الضمير الذى يستشعر الحق والواجب بخاصية ، فيه لا تكاد تخطىء الحق ولا تستحقها أثره ولا يجوز بها عن طريق الحق ولا تستحقها أثره تأثر عاطفى .

حول هذه الآراء تفرعت المذاهب الأخلاقية المتعددة وكان منها عدد من مختلف الآراء والتعاليم وإن كانت وجهتها ، كما قلنا دائما هى سعادة

الإنسان وكان أقدم ما اشتهر من هذه المذاهب ، مذاهب السعادة العقلية وأول مؤسس لها هو : سقراط .

المقاييس النظرية والعملية

يراد من المقاييس النظرية فى الأخلاق القواعد التى وضعها فلاسفة الأخلاق لتقدير الأعمال من حيث ما فيها من خير أو شر .

على أى أساس استنبطت هذه المقاييس إنها استنبطت تبعا للمعنى الذى إذا قصده الفاعل ونواه عند العمل كان عمله خيرا أو شرا .

مثلا : مقياس الواجب يعتبر العمل إذا كان مقصده عند العمل أن يكون عمله أداء للواجب فى ذاته لا بقصد الحصول على لذة ولا على منفعة ولا أية غاية أخرى غير الواجب مهما كان سمو القصد فيها لأن ذلك شر كله ومقياس المنفعة الشخصية يعتبر خيرا كل عمل يعود عليك بالمنفعة الذاتية ويعتبر شرا كل عمل تعمله بلا منفعة تعود على شخصك فإذا قصدت مثلا بعملك وجه الله وحده كان عملك شرا فى نظر أصحاب هذا المقياس لأن الخير والشر عندهم مادى صرف وليس خيرا أدبيا كما هو الشأن فى مقياس الواجبية ، وإذا تصدقت على مسكين بقرش دون أن تربح من ورائه أكثر منه فعملك هذا خيرا ، وهكذا يقل فى باقى المقاييس.

أما سبب تسميتها نظرية فلأنها مستنبطة من طريق النظر العقلى الحر ولكل إنسان أن ينظر فيها بحريته التامة فإن أعجبته قاعدة عمل بها وإلا رفضها وبحث عن غيرها .

الفروق بين المقياس العملى والنظرى :

يحسن بنا أن نعرف هنا بعض الفروق بين المقياس العملى والمقياس النظرى فى علم الأخلاق لأهمية تلك الفروق ، وأهمها ما يلى :

١- المقياس العملى كالعرف والقانون الوضعى أو السماوى لا يحتاج فى القياس به إلى نظر واستدلال ، وبحث بل تقاس عليه الأعمال بخضوع واستسلام دون تدخل الفكر والرأى الشخصى .

أما المقياس النظرى كمقياس كانت مثلا فمعناه القاعدة التى اهتدوا إليها بفكرهم الحر : ورأيهم ونظرهم غير مقيدين فى ذلك بأى قيد من عرف او قانون ليعمل بها من يستصوبها .

٢- من المقاييس العملية ما لا يمكن تبديله فالقانون السماوى او الوضعى ما دام قائما معترفا به ، ومنها ما يمكن تبديله كالعرف وإن إحتاج فى تبديله إلى نظر عال وهمة عالية حتى يبين خطأه للأنظار فيهمل .

٣- المقاييس النظرية فما زالت كلها قابلة للتغيير والتبديل ، وحسبها أن يثبت النظر الصائب أنها غير صالحة فتهمل ويطلب سواها .

٤ - المقاييس العلمية ، منها مالا يقبل الخطأ ولا يعتريه الضلال فى الأحكام كالقانون السماوى ، ومنها ما يقبل الخطأ والنقص كالقانون الوضعى والعرف ، أما المقاييس النظرية فكلها عرضة للخطأ والنقد ،ولم يعرف من بينها حتى اليوم مقياس سلم من النقد مهما قرب من الصواب .

٥- المقاييس العلمية جزئيات خاصة تختلف باختلام الأمم والأزمنة والأمكنة والمقاييس النظرية قواعد عامة لو سلمت من النقد والخطأ . كفى المقياس لأن يستخدم فى كل عمل من أعمل الإنسان لمعرفة الخير والشر .

٦ - القياس بالمقاييس العلمية يتيسر للعوام والخواص والقياس بالمقاييس النظرية لا يتأتى إلا لأرباب النظر والمفكرين .

٧- من المقاييس العلمية مالا يكفى الجميع فى تعريف الخير والشر كالعرف والقانون الوضعى ، ومنها ما يكفى لذلك كالقانون السماوى الذى يقتنع به الخواص والعوام ، إن كان للخواص شغف بالبحث دائماً وراء العمل والأسباب البعيدة يعمدون إلى البحث النظرى ، الذى كثيراً ما كانت غايته موافقة القانون السماوى وأحكامة الأدبية ولهذا كانت الحلجة إلى المقاييس النظرية

مع وجود العملية وعلى الأخص لمن لم يؤمنوا بقانون سماوى كفلاسفة الاغريق قديماً، وفلاسفة الغرب المتحررين من سلطان الدين حديثاً.

(ب) - أقسامها ومنشأ هذا التقسيم :

منذ عرفت الأخلاق عند الإنسان لا نزال نجد حتى اليوم من بين المقاييس النظرية مقياساً مجمعاً على صلاحيته سلم من النقد بل نجد مقاييس مختلفة تبعاً لاختلاف أنظار واضعيها فى المعنى الذى به يكون العمل خيراً أو شراً لأن البواعث والمقاصد المعتبرة فى خيرية العمل وشريته تختلف عندهم اختلافاً بيناً ، فلو أنك سألتهم جميعاً متى تكون مساعدة الصديق خيراً ؟

فإن بعضهم سيجيبك : إنما يكون هذا خيراً إذا كان الباعث عليه والمقاصد والغاية منه قضاء الواجب لأنه الواجب فحسب ، ولو أختلف مع باعث الواجب أعتباراً آخر فراعيت الصداقة فى باعثك على العمل كان عملك شراً وغير جدير بأن يسمى فضيلة ، وسنجد جواب البعض يقول .

إن هذا العمل نفسه إنما يكون خيراً إذا حقق لك منفعة شخصية أو منفعة عامة وقد يقول آخرون : إنما يكون هذا العمل خيراً لأنه يساعد على كمال الإنسان ولهذا اختلفت المقاييس فكان منها مقياس اللذه الفردية ومقياس الواجبية ومقياس المتفعة العامة أو الخاصة ، ومقياس أصحاب مذهب الكمال وسوف نتناول هذه المذاهب بالدراسة فيما بعد .

المبحث الثانى
الفرق بين المذاهب النظرية

مميزات مذاهب الواجب على مذاهب الغاية والكمل .

١ - مذاهب الواجب تحكم على الأعمل بالخيرية أو الشرية لأنها فى ذاتها خيراً أو شراً لا لأنها تجر نفعاً أو تجلب ألماً ، كما رأى أصحاب مذاهب الغاية، ولا لأنها تحقق توافق المرء مع بيئته كما رأى أصحاب مذاهب الكمل .

٢ - ليست الفضيلة فى رأى مذاهب الواجب وسيلة يراد بها غاية أخرى ، بل هى غاية الغايات كلها ، وهى بنفسها الحرية بالطلب، وهى الخير الأعلى ،ومن نفسها تستمد كل قيمة ومكافأة .

٣ - مذاهب الواجب تجعل رائدها العقل والضمير فى الحكم على الأعمل بالخير أو الشر دون اعتبار للعواطف والشهوات ، أما أصحاب مذاهب الغاية فيسألون الحس قبل كل شئ ويحكمون الطبع الإنسانى بكل ما فيه من غرائز وشهوات وعليه يبنون حكمهم بالخيرية او الشرية .

٤ - الفضيلة عند مذاهب الواجب لا تتغير بزمان ، ولا فى مكان ولا باختلاف الأشخاص ، فالفضيلة هى أبد الدهر الفضيلة، أما الغائيون فالعمل الخير يختلف عندهم بإختلاف الرأى الشخصى وباختلاف الزمان والمكان.

٥ - مذاهب الواجب ذات قانون أدبى إلزامى يأمر ليطاع ،وعلى من يخالف قانون الواجب أن ينتظر سخط الرأى العام والاحتقار من جميع من يعرفون للواجب قداسته ، أما قانون مذاهب الغاية فهو تخييرى يبين الخير والشر فقط حسب الرأى وللإنسان أن يختار بنفسه ما يحلو له، لأن الرأى عندهم له قيمته فى الحكم ، فلا يتأتى معه إلزام .

تلك مميزات بين مذاهب الواجب ، ومذاهب الغاية جديرة بأن تكون زيادة إيضاح على ما تقدم فى تقسيمها .

٦ - أما مذهب الكمال فهو بين الواجبية والغاية ، وهو إلى الغائية أقرب، لأن توافق المرء مع بيئته له مراعاة غاياته الشخصية كما يفضل الغائيون وقد يدعوه إلى التنازل عنها والتضحيه بها كما يفعل الواجبيون .

٧ - مذاهب الغاية التى ذكرناها إنما تجعل الباعث على العمل غاية قريبة كلذة عارضة، أو منفعة مقدرة بالحساب .

أما مذهب الكمال فغايته العليا كمال الإنسان ، ومن هنا قد تكون غايته بعيدة كل البعد عن غاية اللذيين والنفعيين .

والآن يحسن بنا أن ننتقل إلى شرح تلك المذاهب تفصيلاً منبهين قبل ذلك على أن كل مقياس منها يشتمل على مذاهب متعددة يختار وضعها على هذا الترتيب .

١ - مقياس الواجب وفيه مذهبان : مذهب الرواقيين فى القرن ٣ ق.م ، ومذهب (كانت) فى القرن ١٨ الميلادى .

٢- مقياس الغاية وفيه مذاهب : مذهب اللذة والألم للفيلسوف (أريستيب) القوريناثى فى القرن ٤ ق . م ، ومذهب المنفعة الشخصية للفيلسوف ابيقور فى القرن ٣ ق . م ، ثم مذهب (هوبز) فى القرن ١٧ الميلادى ، ثم مذهب (بنتام) فى القرن ١٨، ١٩ الميلادى.

٣- مقياس الكمال: وفيه مذهب واحد ، هو مذهب (سبنسر) فى القرن التاسع عشر الميلادى وعلى ذلك فالمقاييس ثلاثة والمذاهب سبعة ، اثنان فى الواجبية وأربعة فى مقياس الغاية ، وواحد فى مقياس الكمال .

وقد يقل : كيف تتعدد المذاهب فى المقياس الواحد ؟ والجواب : إن القاعدة الواحدة والمسألة الواحدة قد يأخذ بها علماء متعددون ، ثم يختلفون

فى التفاصيل ، فيذهب كل واحد منهم مذهبا خاصا ، كما ترى فى قاعدة ومقياس الغاية ، بعضهم يرى أن هذه الغاية تتحقق بالحصول على المنفعة الشخصية ، وبعضهم رأى أنها تتحقق باللذة وبعضهم رأى الغاية المطلوبة لا تتحقق إلا بالعمل من أجل المنفعة العامة ، ومن هنا اتضح لنا الفرق بين المقياس والمذهب ، ولنشرع الآن فى دراسة بعض المذاهب الأخلاقية التى أجملناها سابقاً .

الفصل الثامن
المذهب الرواقى

المبحث الاول : (أ) رجال المذهب :

مؤسس هذا المذهب هو (زينون) الرواقى الفيلسوف الإغريقي المولود بمدينة (كيتيوم) من أعمال "قبرص" سنة ٣٦٠ق.م. وكان أبوه تاجراً يختلف إلى (أثينا) ثم يعود حاملا بعض مؤلفات السقراطيين فكان (زينون) يقرأها فى صباه. وما لبث أن مل إلى الاتصل بأصحابها بعد نكبة نزلت بأسرته على إثر غرق أموال أبيه فى البحر لعله يجد فى ممارسة هوايته العلمية ما يخفف آلامه.

فقدم إلى (أثينا) حوالى سنة ٣١٢ق.م. واستمع إلى بعض المشتغلين بالفلسفة، ومنهم: (اقراطيس) تلميذ (ديوجين) الكلبى. ويبدو أن (زينون) بعد احتكاكه بمختلف المدارس اللاتينية قرر أن يكون تابعا من أتباع المذهب الكلبى العجيب الذى يعلم اتباعه أدق وأقسى تعاليم الزهد واطراح لذائد الحياة والعبد عن كل مظاهر الترف وغرور هذه الدنيا الغرورة الغالبة ولعله رأى بعينى رأسه طوائف الكلبيين وهم يرضون من العيش بما لا ترضى به الكلاب. ولعل (زينون) سمع من (كربيوس) عجائب أستاذه، ديوجين" الذى جعل بيته من الدنيا برميلا من الخشب يدحرجه أينما رحل فإذا أدركه المساء أو أرهقه التعب تمدد داخل البرميل ونام.

نقول: لعل (زينون) سمع ورأى كل ذلك من رجل المذهب الكلبى تسامى عن المصائب التى حلت بأسرته بسبب غرق أموال أبيه فى البحر وبدت له حكمة الحياة فى تعاليم هؤلاء الكلبيين على الخصوص.

(ديوجين) الذى وقف عليه (الإسكندر) الأكبر يوما وهو جالس فى الشمس وراح يحسن له ترك هذه الحياة الخشنة ويعده بأجزل العطايا إن هو ترك ما فيه وانضم إلى بلاطه فكانت كلمة هذا الزاهد العنيد الأخيرة

كل ما أريده منك أن تنصرف وتترك ما حجبته عنى من ضوء الشمس. فمضى الإسكندر آسفا وهو يقول لو لم أكن ما أحببت أن أكون سوى (ديوجين).

على هؤلاء المعلمين الذين يندر وجودهم فى الطبيعية الإنسانية تتلمذ (زينون) ولما اكتملت معارفه أنشأ مدرسة فى رواقه باثينا كان من قبل مجمعاً للشعراء ومن هذا الرواق استمدت الطائفة اسم (الرواقيين).

ولما توفى (زينون) سنة ١٦٤ ق.م خلفه على المدرسة بعض تلاميذه وهو (كليانتوس) وكان ضعيفاً فى الدفاع عن مبادئ المدرسة وتعليمها وخصوصاً أمام هجمات المدرسة الابيقورية وهجمتها القوية وجدلها المنظم وتضارب المدرسة فى عصره ولكن أحد تلاميذها النابهين وهو (كزبريوس) تولى من بعده أمر المدرسة فجلد لها مجدها بما كتب من المؤلفات القيمة وما أذاعه من الآراء السديدة فكان بذلك يعد المؤسس الثانى للمدرسة الرواقية. وتابعت المدرسة للمدرسة الرواقية منهجها دون تجديد قبل الميلاد أما بعد الميلاد فقد عرف لها عصر آخر رومانى حيث انتقلت الدراسات للمدرسة الرواقية إلى (روما) بعد أن أصبحت عاصمة الدولة الجديدة، وبعد أن ركد النشاط العلمى فى (أثينا) بسبب سقوطها فى يد الرومان بعد استيلائهم على بلاد الإغريق قبيل الميلاد.

وفى (روما) عرف المذهب أتباع مبرزون من الرومانيين أشهرهم (سنكا) و(أبكتوس) و(مارك أورويل) الأمبراطور الرومانى الشهير و(شيشرون) الذى شرح المذهب الرواقى بعناية تامة وبعض المؤرخين يعده مؤرخا للفلسفة لا يتحيز لمذهب خاص.

وأهم ما وصلنا من تعاليمي المذهب الرواقى كان من مؤلفات هؤلاء الرواقيين الرومان وقد نرى على تفكيرهم بعض التأثر بتعاليم المسحية التى عاصرت الرواقية بعد الميلاد بضعة قرون .

مبادئ المذهب الرواقى وتعاليمه:

للرواقيين مبادئ فلسفية حول الطبيعة يقررونها أولا ويبنون عليها مبادئهم فى فلسفة الأخلاق. فأما مبادئهم حول الطبيعة فتتلخص فيما يلى:

(أ) الكون وحدة متماسكة يكون فيها العقل والقوة العليا الفاعلة المريدة المدبرة المحركة مع المادة شيئا واحداً يسمى الطبيعة الكلية.

(ب) الطبيعة الكلية إذن عاقلة بالعقل العام وقوانينها الكلية تسير بقدر ونظام محكم ليس وليد الصدفة ولا الضرورة العمياء بل الضرورة العاقلة تسيره.

(ج) العالم يسير بنظام وثبات وتدبير إلى غاية مقررة محتومة وإن لم يكن فى مقدورنا تحديد هذه الغاية.

(د) العالم خاضع فى سيره لقوانين ثابتة يحكمها نظام العلة والمعلول والسبب والمسبب.

(هـ) الإنسان جزء من الطبيعة العاقلة.

(و) الطبيعة تتجه إلى غايتها عفوا وبلا تصور ولا شعور فى الجماد. والنبات ومع نوع من التصور والشعور فى الحيوان الأعجم أما فى الإنسان فتتخذ طريقاً آخر هو العقل لتحقيق أسمى الغايات.

تلك هى مبادئ الرواقيين وفلسفتهم حول الطبيعة العاقلة. وإن الإنسان جزء منها يمتاز هو أيضا بالوعى والعقل فإنه يتحتم إلزامه بمبادئ الأخلاق التى تتلخص فيما يلى:

أ- مقياس الخير والشر والقاعدة الثابتة لتقدر الأعمال هى: السير دائما حسب العقل والتوافق مع الطبيعة، ... ومعنى السير حسب العقل ألا يقدم الإنسان المميز العاقل على عمل إلا بعد التفكير فيه ليعرف أهو من وحى العقل أم من طيب الوجدان الثائر ونزوات الغرائز؟ فإذا اتضح له أن العقل يوحى به فعله ومعنى السير حسب الطبيعة الكلية أن يعتقد دائما أنه جزء من الطبيعة الكلية العاقلة فيساير قوانينها الكلية التى تحكم العالم وتسود

فيرضى بالقضاء والقدر، لأنه هو آمرها المحتوم الذى لا مرد له، وكل تذمر وكل ثورة وكل سخط على ما تجئ به من الآلام والمحن يكون خروجاً عن هذه التوافق وبالتالى خروجها عن مقياس الأخلاق .

فحب الإنسان البقاء مثلا يكون توافقا مع الطبيعة الكلية التى تريد له البقاء والتى وهبتنا هذا الميل الإنسانى لتحصيل ما يستبقى به المرء كيانه فى حدود هذا التوافق، لا ليحصل به اللذة كما قال اللذيون، ولا المنفعة كما قال النفعيون كل ما هو خير للإنسانية وكل ما هو توافق مع الطبيعة الكلية يقوم به الإنسان .

(ب) العقل وحده هو صاحب الحكم الفصل فيما هو خير موافق للطبيعة وما هو مخالف. مثلا حب البقاء الذى ذكرناه يحكم العقل بأنه خير. لأن الإنسان جزء من الطبيعة الكلية لحبه البقاء متصل بإرادتها أن يبقى وتابع له من ذلك. والخير فى أن يريدها إرادته .

والجزع من الموت شر لأنه مناقض للطبيعة الكلية التى فى قوانينها الموت بحلول الأجل المحتوم .

(ج) الإنسان حر الإرادة فى هذه الحياة وإن كان فى الواقع جزءاً من الطبيعة الكلية ذات القوانين النافذة والأقدار المحتومة بدليل أن الناس يختلف سلوكهم أمام الحادث الواحد مع وحدة الظروف المحيطة بهم.

فأهل المدينة الواحدة، بل الدار الواحدة تجدهم ساعة حدوث زلزال مخيف يلجأ كل منهم إلى وسيلة يختارها حسب إرادته لاعتقاده أن فيها نجاته فرغم أن الدافع على أعمالها كلها كان من عمل الطبيعة الكلية ومن قضائها المحتوم، فان سلوك كل منهم كاف من وحى عقله واختياره وأيضا القدر مغيب عنا ونحن به جاهلون وهذا يمنحنا حرية الإرادة .

(د) الخير دائما هو الفضيلة وحدها والفضيلة هى الخير كله. وهى غاية الغايات تطلب لذاتها ولا يطلب بها شئ آخر. وهى تامة فى جميع جزئياتها.

(هـ) قد يتناقض الإنسان مع الطبيعة الكلية وتنحرف ميوله عن استقامتها الفطرية فيعد نفسه مقياس كل شئ ويعتبر كل ما يرضيه خيراً وكل ما يسؤه شراً ويعارض الخير الكلى الذى تريده الطبيعية الكلية فإشباع خياله من الخيرات الجزئية الخاصة ومن المنافع والشهوات ويظنها كلها سعادته فيهوى به تناقضه إلى حضيض البؤس والشقاء وتأخذ هموم المطامع من كل ناحية.

(و) لا وسط فى الفضيلة فالإنسان إما فاضل تام الفضيلة، وإما شرير بكل معنى الكلمة لا وسط بينهما ولان الحكمة لا تتجزأ فإما حكيم وإما مغفل.

(ز) بين العقل والشهوات دائما حرب عوان ، والحكيم هو من يتمسك بالعقل ويناصره لكى يهزم هذه الشهوات ويسود العقل .

(ح) الإنسانية أخوة بين الجميع والعالم كله أمة واحدة لا فرق بين رجل ورجل مهما كان فى محاسن الاستقلال واستغناء المرء بنفسه فلابد من روابط اجتماعية تدعو إلى المساعدات والتعاون ، وقوانين الاجتماع هى أيضا فى نظام الطبيعة الكلية

وتلك أهم مبادئ الأخلاق الرواقية ونظرياتها العامة نرى أن نتعرض لنقدها قبل أن نبين منها طرفا من تعاليم الروقية العملية ومن رجالها وإخلاصهم لتعاليمها لنقف على صورة واضحة من هذا التعاليم التى كثر مادحها وهاجيها من النقاد حتى لانكون مجرد مقلدين نمدح او نذم دون علم بلباب الحق وصراطه المستقيم .

ولذا نقول كان عصر قيام المدرسة الرواقية من أسوأ عصور التاريخ الأغريقى فهوت فيه (اثينا) وانتهكت حرماتها وأصبحت بعد مجدها السالف المزدهر فريسة الغزاة الطامعين الظالمين طورا بالأسبارطيين، وآخر بالمقدونيين ، وأصبح الحق ، وكل ما يسانده من فلسفات ومبادئ إنسانية تحت سنابك الخيل الغازية والجيوش القاهرة لا يأبه له احد ولا يجد له نصيرا.

أصبح القانون السائد أن الحق يتبع القوة ، كما هو مبدأ السوفسطائيين ، وما عسى يبلغ جهد الفيلسوف فى ذلك العهد ، وهو مهما حرص على أخلاق الفضيلة فإنه ليس نبياً يناصره الألوف ويمده عون الله حتى تنتصر دعوته ، إنه لا مفر له من أحد أمرين، إما أن يتزل بفلسفته ومباديه إلى حد تهريج السوفسطائيين ومجاراة أصحاب المطامع والشهوات كما كان يصنع منتحل الفلسفة والإرشاد وهذا مذهب الأكثرية فى كل زمان تسود فيه فوضى المطامع ، وإما أن يربأ بنفسه وينزل المعترك ويقنع بما قد يستريح إليه ضميره من نشر فكرة او ترويج معتقد نافع او إحياء قدوة طيبة بقدر ما تسمح به مواهبه ، والى هذه الخطة لجأ حكماء المذهب الرواقى وأساتذتهم "الكلبيون" من قبلهم حتى يتعالى "ديوجين" الكلبى على الاسكندر الإمبراطور الأكبر وأبى أن ينضوى تحت بلاط ملكه وخيراته الفائضة ولم يقف المؤرخ الشهير (فيكيتور دورى) أن يعلن عن هذه الحادثة العجيبة فقال: والحق أنه لم يمكن هنا للاستغناء سوى وسيلتين الزهد والقوة وكانت الأولى آكد وأضمن من الثانية.

ونحن من جانبنا نقول : نعم وقد أختار الرواقيون الطريقة الأكد والأضمن كما اختارها أساتذتهم الكلبيون من قبل وعلى رأسهم ديوجين وهناك سبب أخر غير هذا الذى عرفناه من ترفع الرواقيين عن كل شئ غير كبريائهم وعزوفهم عن التخلق بأخلاق الفساد.

ذلك السبب الأخر هو أن هناك قاعدة اجتماعية تقرر أن المقاومة تتبع الضغط قوة، لذا كان من الطبيعى أن تشدد الأخلاق الرواقية مقاومة عادات ذلك العصر الذى ساء سلوكه وفسدت أخلاقه وكثرت فيه فلسفات الإباحية الفوضوية وهذا التشدد فى المقاومة جر على الرواقيين ما أخذه عليهم النقاد من جفاف أخلاقهم وخشونتها وخروجها عن حد الطاقة الإنسانية.

لذا كان سلوكهم يتمثل فى هذه الوصايا الأربع المشهورة : (احتمل -كف نفسك - ساير الطبيعة- أطع العقل) تلك الوصايا كانت دستورهم

فى العمل الذى يتخذونه فى سلوكهم بكل أمانة وإخلاص ويسيرون عليه دائما فى كل حياتهم .

ومعنى قولهم : (احتمل) أن يحتمل المرء كل ما يأتى به القضاء والقدر من المحن والمصائب ، ومعنى قولهم (ساير الطبيعة) فهو أن يعتبر الإنسان نفسه جزءاً من الطبيعة الكلية يدور به دولابها كما يشاء دون اعتراض أو سخط ، لأن قانونها هو القدر الذى نعرفه ولا يعارض بأية حل .

ومعنى قولهم : (كف نفسك) أن يقتل فى نفسه كل شهوة ويحارب كل الميول الفردية بلا هوادة وبكل وسيلة لكى يسود العقل دائما ، وأما معنى (أطع العقل) فلا تحتاج إلى بيان .

والرواقيون يعنون ما يقولون وينفذونه فيكبدون أنفسهم أشق العيش وأتعبه ويحرمونها من كل لذائذ الحياة ومتعتها ، ويتعرضون لأشد الآلام بلا مبالاة ويوصون بالاستهانة بالموت تحقيقا لفضيلة الشجاعة والزهد فى متع الحياة ، حتى كانوا يعمدون إلى الانتحار الذى علمه لهم أستاذهم (زينون) بعد أن عاش مائة عام صحيح البدن ، فكانت عادة الانتحار سنة من سنن مذهبهم ، ولا يبعد أن تكون عادة الانتحار المعروفة باسم (الهيرا كيرى) فى اليابان حتى اليوم مقتبسة من تعاليم الرواقية .

وقد استطاع (سنكا) أحد فلاسفة الرواقية فى عصرها الرومانى ان يعيش فى بلاط (نيرون) الإمبراطور الطاغية رواقيا بكل معنى الكلمة وكان لا يتهيب كبح جماح ذلك الإمبراطور الغشوم بما عليه من نصائح وحكم وتعاليم وادعة حتى تباعد ما بينهما ولفق له الإمبراطور بعض التهم وخيره فى ميتة يختارها فأختار فصد شريانه الأكبر واستمر الدم يتفجر منه حتى قضى نحبه وهو على أتم ما يكون ثباتا واحتمالا ، كما حدث ذلك من قبل لأستاذ أساتذتهم (سقراط) .

وكان (أبليتوس) من بعد (سنكا) أشهر معلمى الرواقية ومن اخلصهم للمذهب ، فى القرن الأول الميلادى ، وكان عبدا رقيقا ذاق من

العذاب على يد سيده ما لا يحتمل ثم من عليه سيده بالعتق وما عرف إلا مخلصاً للعلم والعمل قبل العتق وبعده.

يتناقل مؤرخو الفلسفة أن سيده قبل العتق كان يبتليه بضروب من التعذيب ليعلم مدى احتماله ثم فكر مرة أن يلوى ساقه وراح يجرب لعبته الخطرة إلى أبعد حدود القسوة فما كان من الفيلسوف إلا أن قل له فى هدوء : ستكسر ساقى ، فلما كسرت بالفعل قل بنفس هدوئه كسرت ساقى وقد قلت لك ذلك من قبل، وكان فى الحرية أشد تواضعا قبلها وأكثر زهدا قضى حياته كلها يسكن بيتا من غير باب ويختلط بجماهير الشعب من كل طبقة وقرب إلى عقولهم تعاليم مذهبه ، ويعد إيضاحه لهذه التعاليم فى ذروة البيان كان يقول : قبل كل عمل يجب أن تتروى لتعلم أهو مما يتعلق بنا؟ أم مما لا يتعلق بنا؟ ... وهكذا كان هذا الرواقى فى تعاليمه متشدداً، وأما أمام الأخطار فإننا نرى (أبليتوس) فى تعاليمه يصغر من شأنها ويحتقرها بكل ما فى الرواقى من كبرياء كان يقول : عندما أريد الإبحار فإنه يجب على فقط أن اعمل ما يتعلق بى ولا أهتم بما لا يتعلق بى بل أفرغ فكرى منه مهما يكن أمره وأنا على أتم ما يكون من الثبات والاطمئنان ، أما ما يتعلق بى فهو أن أبذل جهدى فى اختيار الوقت والساعة والسفينة والربان والنوتية وبذلك يتم ما يتعلق بى فإذا ما احتوانا اللج وثارت العاصفة فالعمل يتعلق هنا بالربان ورجاله، فإذا غلبوا بفعل القدر وفغرت اللجة فاها وبدأ شبح الموت فأهلا به وسهلا واجبى هنا الذى يتعلق بى أن أبقى على أتم الهدوء ، فلا صراخ ولا حزن ولا جزع كل مولود لابد أن يموت، كذلك فلأمت لست أنا الخلود ، أنا إنسان فقط وجزء من الكل .

ومن أجل هذا كانت تعاليم الرواقية تستهوى كل نفس نزاعة إلى البطولة حتى لنرى القاعدة الرواقية (اعمل ما يتعلق بك ولا تفكر فيما لا يتعلق بك) أشبه بقصيدة مقدسة : ولعلها كانت منقوشة على قلب (هيلفديوس) عضو مجلس الشيوخ الرومانى عندما ثار ذات يوم بينه وبين

الإمبراطور (فسباسبان) جدال عنيف فقال له : أحب ألا أراك بعد اليوم هنا فى مجلس الشيوخ فقال له (هيلفديوس) : حقا إن ما يتعلق بك أن تلغى وظيفتى ولكن مما يتعلق بى أن أجئ إلى هنا ما دمت عضوا فى المجلس.

وهكذا نرى تعاليم الرواقية ثابتة عند أصحابها كأنها عقيدة سماوية مؤمنون بها ويموت فى سبيل بقائها .

وأيضا كان من خيرة أساتذة تعاليم الرواقية الإمبراطور العادل (مارك أوريل) بعلمه وعمله رغم منصبه الذى كان من مقتضياته العلو والكبرياء ، ويعد من أحسن الوجيبين تعبيرا عن فكرة الواجب كان ممن يقول : يجب على المرء أن يكون مثل الكرمة التى تعطى ثمارها ثم لا تطلب مكافأة، وعليه إذا عمل خيرا أن يمضى فى عمل خير آخر كتلك الكرمة نفسها لا تبخل بأعناب أخرى فى كل إبان يحين للإعطاء .

تلك إشارة من تعاليم الرواقيين وأعمالهم تتجلى فيها روح الواجبية ومنها تعرف السبب الذى دعا علماء الأخلاق إلى تسمية الأخلاق الرواقية أخلاق البطولة وبعضهم يسميها أخلاق الكد والجهد، وبهذا نرى أن قد حان الحين لكى نبدأ الكلام على نقد الرواقية .

المبحث الثانى
نقد الرواقية

١- الرواقية مذهب جاهلى لا تستند شريعته الخلقية إلى عقيدة سماوية تؤمن بالله وتجعله مبدأ كل شئ وغايته. وعلى نور هديه يسير ركب الإنسان فى محيط هذه الحياة وإليه يلجأ عندما تعظم الكروب وتجل الخطوب ، لذا كان الرواقى يعتمد على ذاته بالغا ما بلغ فى محاربة الشر والإثم وقهر دوافع الغريزة دون رجاء الله ولا انتظار لجزائه لأن نفسه الرواقية أعلى من أن تطلب الجزاء.

٢- هذا الغلو فى التعالى والاستقلال الذاتى إلى حد الاستغناء عن الله ذاته هو النقطة التى يعدها الرواقى أساس مجده الأدبى ومركز

عظمته، وكان هذا هو الهدف الذى صوب إليه نقاد الرواقية أشد الضربات غير ما أخذوه عليها فى جوانب أخرى .

٣- من أكثر النقاد (إمعانا) فى نقد هذا المذهب الأستاذ (سانتهلير) مترجم (علم الأخلاق) لأرسطو من اليونانية إلى الفرنسية، إذ يقول :إن الرواقية اليونانية لها كثير من العيوب كما لها كثير من العظمة وإن كانت هذه العظمة صناعية بعض الشئ ولكن حبها الحار الصادق للفضيلة والواجب يستوجب علينا إحترامها ومسايرتها فإن بها من (ضلالات محل للإشفاق لا للوم) :

ويرى أيضا أن غلو الرواقية فى الخير لا يستدعى من شدة النقد ما تستحقه المذاهب الأخرى المفرطة فى الرذيلة كمذاهب اللذة الإباحية، لأن غلوها فى الخير لا تخشى عدواة فى أيامنا هذه التى لا يتصور فيها الغلو، إذ يكاد الخير نفسه يبلغ حد الندرة ولكن (سانتهلير) لم يكد يتلطف بالرواقية فى هذه الكلمات المعدودة حتى أرخى لقلمه العنان فى تجريحها بالجراح الموجعة ومن ذلك قوله :

لا ننسى أن الرواقية قد نشأت فى عصر الاضمحلال " سقوط بلاد اليونان تحت الاستعمار " ، وإذ قد انعدم الإحساس بالجمل الحقيقى فى جميع الأشياء فقد اخذ الناس يكلفون أنفسهم القسر فى كل شئ وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الغلو لأنهم لم يعرفوا بعد أن يكونوا أخيارا حتى فى الخير ، على ما يقتضيه الطبع وسلامة الذوق ، قامت الرواقية بمذهب شاذ يصير الفضيلة أمراً لا ينال بل محلا للسخرية أحيانا ، فالحكيم عندهم على ما بهء منَ عدم الاهتمام وعدم الحساسية لم يبق إنساناً على وجه ما، فإنه ليس وطنيا بعد ، وإنه فيما هو فيه من الاستقلال المصطنع باعتبار أنه ليس فى حاجة إلى إنسان أخر ، يفر من الجمعية ويحتقرها بحجة أنه لا يستطيع أن يصلحها على نموذجه الذى لا يتأثر بشئ ، يفر من الجمعية على هذا النحو حتى يفارق الحياة التى يتصرف فيها كأنه هو الذى وهبها لنفسه .

فالرواقية ليست إلا ضربا من القنوط ، ومصيبة الرواقية إنما هى فى أنها لم تضع الإنسان فى موضعه الحقيقى .

أنها لم تتمشى إلى حد هذه السخافات الدنيئة التى خلعت الخالق لتضع مكانه "الإنسانية" كما هو الحل فى أيامنا هذه ، كلا بل إنها تظهر باعتبارات شتى تقية تقوى خالصة وأنه لا نفس أشد تكذيبا فيه ولا أرق قبسا من نفس "ابيكتيت" او مارك اوربل ، ولكن إنسان الرواقية فى الحقيقة هو أكبر من الله الذى يتوجه إليه ويدعوه احيانا بلغة كليانت ، الجميلة ، أنه يستغنى عنه فى حين أنه يدعوه، ونظرا إلى أنه لن يلقاه فى عالم آخر يكاد ينساه فى هذه الدنيا ، ومن هذا نشأت تلك الكبرياء البعيدة كل البعد عن الخضوع السقراطى وعن الحق لا يطلب الحكيم نقطة ارتكاز إلا نفسه بعد أن لم يعرف أن يجدها فى قوة الله القدير .

وأما الفيلسوف (بوسيه) فقد استطاع بكلمات معدودة أن يهجو بأكثر من ذلك وأشد ، إذ يقول فى وصف تعاليمها (أن هذا ليعد نغمة عالية بالنسبة للإنسانية الضعيفة الفانية ، بالأقاويل المبهرجة وللإحساسية المصطنعة والحكمة الموهومة التى تحسب نفسها غالية لأنها قاسية ، وعظيمة لأنها منتفخة .

أما (بسكل) فقد ترفع عن مثل نقد (بوسيه) القاسى الذى يتدفق من قلب رجل كان أسقفا متعصبا قبل ان يكون فيلسوفا .

قل (بسكل) فى نقده لا أحد يعتقد أن الرجل أهلا لأن يوصف بالعظمة والقدرة ، واستطاع أن يقول : إن الرجل يستحق أن يقدس لو أنه أدرك تماما أنه مخلوق ضعيف .

هذا بعض ما كتبه نقاد الرواقية يمكن أن تستخلص منه هذه النقاط:

١- الرواقية لم تستند فى تعاليمها إلى الثقة بالله ، بل أحلت محلها ثقة المرء بنفسه وقوته التى تخونه فى أقسى الظروف تماما فلا يرى نورا على الإطلاق .

٢- إنها تتفق وتعاليم جميع الفلاسفة العقلين كأفلاطون وأرسطو فى إعطاء العقل المكانة الأولى، غير أنها تفارقهم حين قالت بأن جميع الخيرات الدنيوية كالغنى والصحة والمنصب والجاه وأمثالها شئ لا يؤبه له ولن يقيم الحكيم له وزنا.

٣- الرواقية تدعو إلى التجرد من الإحساس أمام الآلام والأخطار الهائلة والى عدم الحرص على كل ما من شأنه الزوال حتى الحياة نفسها لا قيمة لها فى نظر الرواقية، وللمرء أن يتخلص منها متى شاء بالانتحار.

٤- تأمر بطرح الشهوات دائما والتعالى على الغرائز مع أنها لم توجد عبثا، بل هى قوانين الطبيعة التى تدعو الرواقية كل إنسان للخضوع لها.

٥- فضيلة الرواقى غالبا تكون حزينة بائسة لأنها تستدعى أشق الجهود ولا أمل فى مكافأة حتى جزاء الخيرين الذى هو رحمة الرحيم على عباده المحسنين جميعا.

ولكن على الرغم من كل ما أخذ على الرواقية لا يستطيع منصف أن ينكر أنها كانت تعاليم فضيلة وسمو، وترفع عن الدنايا كان لها أثرها البين فى محاربة الأخلاق الضعيفة المنحلة حتى لقد وصف (مونتاكيو) الرواقيين لما فيهم من الصبر والجلد (إنهم أشبه بنبت يخرج من الأرض لم تروها السماء).

وحسب الرواقية شرفا أنها صمدت لمحاربة المذاهب اللذية الوضعية عصورا طويلة، وأنها كانت تؤهل رجل الحق لأنبل المواقف.

ونحن من جانبنا نرى غراس الرواقية من الورود كما فيها من الأشواك، وكفاها أن نقادها جميعا لم يستطيعوا تجاهل هذه النواحى الطيبة منها، لكن لعل الرواقيين أنفسهم أحسوا بما فيها من قتاد أليم الوخز فعملوا على تلطف بعض مباديها لتساير الحياة الواقعية فقالوا بتعديل الشهوات بعد أن كانوا يوصون باطراحها جملة، وقالوا بتفضيل الصحة

على المرض، لو عرض للإنسان دون مساس بالفضيلة وكانوا من قبل يعدونها سواء، ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن خلقية الإسلام السمحاء تعجب بشجاعة الرواقى فى سبيل الحق والفضيلة، ولكن لا إلى حد إهدار الحياة وتحديا للموت، وتعجب بما فيها من قناعة ولكن لا إلى حد تحريم ما أحل الله لعباده من الطيبات، وتعجب بما فيها من ترفع عن طلب الأجر على عمل الخير ولكن لا إلى حد التعالى عن مستوى الإنسان ، تعاليا يكبدها أقسى الجهود ويزهدها حتى فيما عند الله تعالى[٣٣] .

المبحث الثالث
الواجب مذهب كانت

لما كانت دراسة بعض مذاهب الواجب من متممات مقرر الأخلاق النظرية فى هذا العام، وطالما لم يعن بهذا المنهج كثيرا، بل وكل أمر اختياره إلى أستاذ المادة، فقد آثارنا أن يقع اختيارنا على ذلك الفيلسوف الخطير والأخلاقى الروحى الدقيق صاحب القواعد الصارمة والقوانين والبواعث التى حملتنا على هذا الاختيار كثيرا منها أن هذا الفيلسوف هو فى رأيى أعمق الفلاسفة العقليين وأبعدهم نظرا وأقربهم إلى المثل الأعلى وأبغضهم للأنانية والمنافع الشخصية وأكثرهم استهانة بالشهوات الحيوانية وأحرصهم على تقديس الواجب والدعوة إلى الإذعان له، ومنها أن الكثير من تعاليمه تتفق مع روح الإسلام فى سموها ومحاولتها السير بالإنسانية إلى الكمال المطلق الذى لا يتحقق إلا باندثار الرذيلة وسيادة الفضيلة، ومنها أيضا أن هذا المذهب لم يدرس فى مصر دراسة واضحة دافعة للحاجة بالرغم من أن كل جامعات الدول الراقية قد وصلت إلى إيضاح هذه الفلسفة (الكانتية) إيضاحا نسبيا كافيا من بعض الوجوه .

---

(٣٣) لأراء الروقيين مكان فى الأخلاق عند بعض فلاسفة الإسلام مثل (إخوان للصفاء وخلان للوفاء) .

أما فى مصر فإن أخلاق هذا الفيلسوف لا تزال غامضة مظلمة، وأن كل الكتب والمحاضرات التى حاول أصحابها فيها شرح هذا المذهب قد نهضت براهين ساطعة على أن هؤلاء جميعا لم يوفقوا إلى تفهم أخلاق "كانت" ولم يهتدوا إلى حل مغلقاتها العويصة .

لهذا كله قد فضلت أن أذكر فى الموجز مذهب "كانت" حتى إذا حانت فرصة تحويلها إلى كتاب اكثر بسطا عنينا إن شاء الله بما يتمم هذا البحث الذى هو من أهم رؤس مسائل الأخلاق النظرية كافة ، والله نرجو أن يوفقنا إلى ما فيه خير البشر وصلاحه إنه على كل شئ قدير .

مولده

اولا ولد هذا الفيلسوف الكبير فى مدينة (لونيكز برج) من أعمال بروسيا سنة ١٧٢٤ ومات فى نفس المدينة سنة ١٨٠٤م .

كان ابن سراج صغير وكانت أمه عضوا فى جمعية دينية لا ترى هوادة فى الدين ولا تسامحا ، وقد جهدت أسرته أن تشربه منذ البداية مبادئ التربية الصحيحة ، وكان أنقى هذه المبادئ وأسماها شعاره حب العمل وعادة التروى ونبل العاطفة ، وقد بدأ مجدا فى تعاليم الدين عملا برغبة أمه ، ثم انصرف عنه ومل إلى دراسة الفلسفة ، وكانت أمه قد ماتت وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وحل فقر أبيه دون القيام بتربيته، وكان له خال ذو استطاعة فوكل إليه أمره ، وتابع دراسته فى جامعة المدينة نفسها ، وفيها نل درجاته العلمية ، وأشتغل أول أمره مربيا بضواحى المدينة ، ثم عين بجامعتها محاضرا ، ثم أستاذاً لعلم المنطق وما بعد الطبيعة، وسرعان ما تستم ذروة الشهرة .

ويقل إنه لم يغادر ، طوال حياته المدينة التى ولد فيها، كأنما كرث حياته للعلم من المهد إلى اللحد .

ويروى أن حياته كانت مثلا فى ضبط السلوك يعز عن الوصف كان يعيش فى تلك المدينة أعزب عيشة جافة ويتبع فى أعماله نظاما دقيقا فاستيقاظه وشربه وقهوته وكتابته ومحاضراته وغذاؤه وتنزهه وعودته إلى

منزله كل ذلك كان يجرى بمواعيد محددة حتى ليمكن أن تضبط الساعات على تنقلاته .

وكان ضعيف البنية إلى حد جعله يلتزم فى الوقاية أدق نظام فما يسمح بأن يكلمه أحد خارج المنزل حتى لا يطر إلى التنفس من فمه فيصاب بالزكام .

ويقل إنه لم يفكر فى الزواج فى كل حياته سوى مرتين لكنه أبطأ فى الأول حتى تقدم للفتاة المنشودة خطيب آخر ، وأيضا فى الأخرى حتى وصلت الفتاة مع أسرتها إلى ناحية بعيدة ، ولعل تلك القدرة على الإمكان فى التردد والتروى كانت عاملا من عوامل نبوغه وعبقريته ، يضاف إليها فقره وحبه للعزلة وبعده عن مشاكل الحياة حتى أخرج خلال ستين عاما فى البحث الهادئ المتزن أقوى ما عرف القرن الثامن عشر من فلسفات العصور، ولكن لعل أهم ما نعرفه هنا عن (كانت) أنه كان من الشكاك بل يقل إنه كان من أكبر الفلاسفة الشكاك .

ويقول بعض الأخلاقيين إن نصف مؤلفات كانت تعتبر تعاليم هدامة وأنها أحدثت انقلابا فى عالم الفلسفة ما لم يحدثه اى مؤلف آخر .

المبحث الرابع
القانون الأخلاقى عند (كانت)

عرفنا مما تقدم أن الرواقيين بل جميع فلاسفة الأخلاق الحقيقيين من القدماء كسقراط وأفلاطون وأرسطو إنما يبنون قانون الأخلاق على أساس عقلى، بمعنى أنهم يسلمون إلى العقل قبل كل شئ زمام الحكم على الأعمل بالخيرية أو الشرية، كما يتبعه السلوك العملى فأين مكان كانت من أولئك الأخلاقيين ؟

يدعى بعض الباحثين ان "كانت" هو أعظم الأخلاقيين العقليين قاطبة، وأنه أتى لشريعة الأخلاق العقلية الواجبة بمبادئ ترفع من شأنها بما لم تر العصور من قبل ، أما نحن فنرى عدم التسرع بأخذ هذا الحكم على

علاقة ولنعرض لمبادئ "كانت" الأخلاقية لنرى إلى أى مدى تذهب بين تعاليم فلاسفة الأخلاق والى أية ناحية تنزع .

قبل كل شئ لم يرض "كانت" ذلك أن العقل الذى أرتضاه سواه من الأخلاقيين وبنوا عليه شرائعهم الخلقية بادئ الرأى، وأبى إلا أن يتشكك فى صلاحيته لأن يؤخذ أساسا للأخلاق ، وقد تقدم فى ترجمته أنه كان من أكبر فلاسفة الشكاك فأخضع العقل لنقد صارم لا هوادة فيه .

وكانت النتيجة الحتمية لذلك النقد أن ظهر له العقل عقلان ، عقل نظرى يحكم على الأشياء تبعا لقضايا ومقننات مأخوذة من الحس والتجارب والإدراكت ، كما هو الشأن فى الأقيسة المنطقية، وعقل عملى يحكم بالبداهة دون حاجة إلى مقدمات وقضايا، لأنه نور فطرى يدرك المجهولات لأول وهلة كما تلتقط عدسة المصور الأشياء بمجرد وقوعها عليها لكن أى العقلين يختار "كانت" ليضع أساس شريعته الخلقية ؟

يقول كانت إنه يرفض العقل النظرى هنا رفضا باتا، لأنه لا يصلح أساسا لشريعة الأخلاق ، إذ إنه يعتمد فى حكمه على قضايا ومقدمات كثيرا ما تكون خاطئة ، وكيف يؤمن خطئه وهو يعتمد على الحواس التى طالما ظهر خداعها ، فترتفع شريعة الأخلاق المقدسة عن مستوى العقل النظرى لأنه يجب ألا يشاد بنائها إلا على مبادئ مسلمة لا جدال فيها ولا حاجة فيها إلى البرهان .

أما العقل العملى فهو الجدير عنده بأن يوضع أساسا لهذه الشريعة المقدسة لأنه معصوم من الخطأ والضلال وأحكامه مسلمة ، وهذا العقل هو ما يسميه "كانت" بالضمير، ويعتقد أنه قوة باطنة فطرية فى الإنسان منذ خلق، لا ينفرد بها شخص دون آخر ، وهو النور الذى لا يخشى عليه خمود والهدى الذى يرسل أشعته من أعماق النفس حين تعمى عليك الأشياء ونظم الطريق، ولا تغنى القضايا والأقيسة ولا ينفع البرهان ، وهو المرشد الأمين فى مراحل ما بعد الطبيعة ، الميتافيزيقا ، حيث يقل العقل النظرى ويتشكك ويتخاذل ولا يجد له هناك طريقا .

القانون الأخلاقى ومبادئه النظرية :

يرفض "كانت" بجرأة وصراحة إخضاع قانون الأخلاق للبحث النظرى والتجربة ويقرر أنه يجب أن يستمد من داخل نفوسنا مباشرة لأن مباديه الفطرية فى نفوسنا واضحة ، وثابته من ذات نفسها لا تحتاج إلى دليل وهذا القانون الفطرى فينا موجود قبل التجربة، وليست التجارب هى التى تعلمنا قانون الأخلاق، كلنا يشعر شعورا واضحا فى قرارة نفسه بأن هذا العمل خطأ، وأن سواه صواب، مهما قوى دافع الإغراء واشتد ، وليس يطعن فى صحة هذا الحكم البين الواضح أن صاحبه قد يغلب فيعمل الخطأ لأنه فى الواقع يعمله مغلوبا، وهو عالم بأنه شر، ولن يتركه بذلك الشعور الخير غارقا فى هذا الخطأ دون أن يأخذه باللوم والتأنيب على هذا الضلال الذى وقع فيه، ما منشأ هذا الشعور الخير يرشدنا ويحذرنا ثم باللوم الداخلى والتأنيب المؤلم ؟

يقول "كانت" ان منشأه هو الضمير بلا شك وهو العقل العملى الذى يخف لنجدتنا فى مثل تلك المواقف الحرجة والذى هو أسمى ميزة للإنسان وهو الأساس الأول للقانون الأخلاقى المقدس الرفيع المنزلة .

وهذا القانون يترفع دائما وابداً عن أن يعتبر خيرية العمل او شريته تابعه لما قد ينشأ عنه من منافع أو مضار أو للذات أو آلام كما هو الشأن فى مذاهب اللذة والمنفعة، ولنبدأ فى الكلام عن مبادئ هذا المذهب .

مبادئ المذهب :

(أ) مقياس السلوك هو : "أن نعتبر الخير دائما فى مطابقة القانون ، للواجب بأن لا يبعث على عمله سوى صوت الواجب والشر دائما فى مخالفة داعى الواجب او إشراك باعث آخر معه" .

(ب) الخير الوحيد فى هذه الدنيا هو إرادة الخير او الإرادة الخيرية نفسها أى القوة التى تلتزم بإيقاع الفعل عندما يقتضى الواجب، وهو فى

نظر "كانت" مناط التكليف الأدبى والخضوع للقانون السامى ، وهو الجوهر الأسمى الذى لا ينزل عن قيمته .

(ج) هذه الإرادة حرة ويجب أن تكون إلا كذلك ، وإلا لما أمكن مطالبة المرء بأداء هذا الواجب والخضوع لقانونه ، ويرى "كانت" أن الفعل النظرى لا يستطيع أن يبرهن على هذه الحرية ولكن نشعر بها فى قرارة أنفسنا كمبدأ مسلم به غير قابل للبرهان ، نحس به جليا عندما نوازن بين أمرين ثم نختار أحدهما ولعل "كانت" أدرك تماما أن العقل النظرى لا ينهض بهذا البرهان لأنه خذل الرواقيين فى هذا الموضوع نفسه ولم يستطيعوا به أن يوفقوا بين القول بالحرية ووجوب الخضوع لأحكام القدر .

(د) عرفنا القانون الأدبى الذى يجب له والإرادة التى تخضع له وتنفذه وقررنا حرية هذه الإرادة ، كيف يتأتى هذا ؟ إذا كانت الإرادة حرة فما الذى يخضعها لهذا الواجب ويكلفها به ؟

يقول "كانت" إن العقل العملى (الضمير) الذى جعلنه أساس الأخلاق أليس عمله إمداد الإرادة بالمعرفة فقط ، بل إنه فوق ذلك يكلفها ويأمرها باتباع سبيل الواجب ، وعلى الإرادة أن تطيع أمره فتأتى بما أراد

وليس خضوع الإرادة لما يأمر به العقل منعا من بقائها على صفة الحرية لأنها إنما تطيع من تلقاء نفسها ويمكنها أن ترفض – متى شاءت – هذا الأمر الذى يصدره العقل .

فهى إذن الخاضعة وهى التى اختارت بنفسها ذلك الخضوع لأنها خيرة، فما أسمى حريتها ما أعلى قدرها بهذا الخضوع نفسه الذى يزيد ألف مرة أكثر مما لو رفضت صوت العقل والواجب واستسلمت للشهوات ، والحرية ليست للفوضى بل إرادة منظمة بالعقل .

(هـ) قد يحسب مجرد الرغبة إرادة كاملة ولكن هذا خطأ بين ، لأنه لابد لكمل الإرادة من استخدام كل ما يمكن من الوسائل لبلوغ غايتنا السامية حتى تكون جديرة باسم الإرادة الخيرة التى يقول فيها

"كانت" من حرم هذه الإرادة حرم من جميع وسائلها لتنفيذ مقاصدها خط معاكس، أو يحل الطبع السيئ أو متى أكدت مجهوداتها فلم تصل إلى شئ ومتى لم يبق إلا الإرادة الخيرة وحدها فإنها تزهو بها كحجر نفيس لأنها تعتمد من ذاتها كل قيمتها.

(و) وبهذه الإرادة الحرة التى تشرع باسم العقل قانون الأخلاق وتخضع له يكون من المقرر أن قانون الأخلاق هو من داخل نفوسنا منها يبدأ وفيها يتم وليس خاضعا قط لأى قوة خارجية، ولهذا كانت الشخصية الإنسانية أسمى من كل كائن فى هذا الوجود وإليها يجب أن يوجه الاحترام كله والإجلال كله، وهى وحدها صاحبة القيمة المطلقة.

كما أن العقل : الضمير يخاطب الإرادة ويأمرها أمراً جازما لذلك نجد وحى الشهوات والمنافع يوسوس لها بأوامر أخرى.

أما الأمر الصادر عن وحى الشهوات والمنافع فيسمى الأمر المقيد أو المشروط، لأنه لا يأمر الإرادة بالعمل إلا بناء على شروط يتقيد العمل بها.

مثال ذلك :

وإذا كنت تريد الصحة فعليك بالقناعة ، ومعنى هذا أن الإرادة إذا لم ترد الصحة فليست مطالبة بالقناعة، ولا يكون الأمر بفضيلة القناعة هنا إلا أمراً مقيداً بالرغبة وليس هو أمراً بالقناعة لذاتها ومثل آخر.

"إذا أردت النجاح فى تجارتك فعليك بالأمانه ، معناه أن الأمر بالأمانة مقيد بطلب النجاح فى التجارة ، فإذا لم يكن النجاح مطلوباً لم تكن الأمانة أمراً واجب التنفيذ ، (هذا هو الأمر المقيد أو المشروط) كما يسميه (كانت) ومنه القوانين التى تحدد ثواباً وعقاباً للأعمال ، للمرء أن يخالفها إذا كان مستعداً لتحمل التبعة[٣٤] وليست طاعة للارادة لهذه الأوامر عملاً فاضلاً ، وليس لهذه الأوامر قيمة فى الأخلاق.

---

[٣٤]) هنا يغلو (كانت) فى الاستقلالية غلوا شديد الضرر.

وأما الأمر الصادر عن وحى الضمير وحده فهو الأمر الذى يأمر بالخير والفضيلة دون قيد أو شرط ، فيقول (عليك بالقناعة) ولا اعتبار لنجاحك فى التجارة أو عدم نجاحك ، فالأمر المطلق يريد عمل الواجب لا لأى إعتبار آخر ، وهذا الأمر المطلق هو الذى يخاطب الإرادة الخيرة، وهى تلتزم بطبيعتها الخيرة تنفيذه مختارة لا مجبرة، لأنها حرة بمحض ما فيها من الخير لا تريد سوى الخير :

وهذا الأمر المطلق هو المعتبر وحده في الأخلاق، ويجب أن يطاع وحيه وأن يعمل كل عمل يأمر به لأنه يأمر دائماً بالفضيلة وبما يجب .

ولذا قد مجد (كانت) الأمر المطلق وجعله دستور لسلوكه وجعل نفسه مثالاً للعمل به فى حياته التى تعد مثالاً من السلوك الدقيق المنظم يعز وجوده، بل وأبى أن يشترك مع الأمر المطلق بغيره ، فإذا وقع عمل من الإرادة خضوعاً للأمر المطلق والأمر المقيد معاً لم يعد عملاً فاضلاً ، كالتاجر يصدق لأنه يعتقد أن الصدق واجب لذاته ، وأنه كذلك سبب الثقة به ونماء ثروته، وهكذا كل عمل يشارك الأمر المطلق فيه باعث آخر منفعى .

(ج) إلى هنا عرفنا أن قانون الواجب إنما يستمد من باطن النفس الإنسانية ومن صوت الضمير الذى هو الأمر المطلق الداعى إلى عمل الواجب بلا قيد ولا شرط، وعرفنا أن الأمر المطلق يوجه إلى الإرادة الخيرة تطيعه من نفسها وتخضع له وترفض الخضوع لأى أمر آخر سواه وتنفذ ما يؤمر به، لأنه هو الواجب، ومن هذا يحصل لنا أن الخير إنما هو فى أداء الواجب، والشر فى أن يقع عملنا الارادى نتيجة باعث ، لكن بقى علينا أن نعين قواعد لسلوكنا العملى فنعرف بها فى كل عمل يقع منا أننا قد أدينا عملنا تبعاً لما يأمر به الواجب، لأن أداء الواجب للواجب معنى دقيق فيه شئ من الغموض قد يعز على فهم الكثيرين من هذه القواعد؟

يقول (كانت) إننا نستطيع أن تكون أعمالنا كلها واجبة إذا لاحظنا ثلاثة شروط للعمل الأخلاقى .

١- تعميم العمل حتى يكون عالمياً ،والقاعدة في ذلك (ألا يعمل الإنسان إلا عملاً يمكنه أن يريد جعله قانوناً عاماً "كالصدق والعفه والأمانه كل هذه يمكن أن يراد قانوناً عاماً فعلها واجب، أما مالا يمكن فيه ذلك فمحل استحلاله الوديعة "أى الخيانه" لانه لا يمكن أن يراد جعله قانوناً عاماً.

٢ - أن يكون العمل مما يقود الإنسانية نحو الكمل المطلق والمثل الأعلى والقاعدة لذلك (ألا يفعل المرء إلا ما يعده صادراً عن وحى ضميره وحده، وليس من تشريع سلطة خارجية ، لأن الإنسانية لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان كل إنسان يعمل ما يعمل مدفوعاً بوحى ضميره لا خوفاً من عقوبة أو طمعاً فى مثوبة كما هو شأن النفوس التى لم تمح بذور الشر منها.

٣ - أن يكون العمل نتيجة إرادة حرة لا تخضع للغايات الوضعية والقاعدة لذلك أن ينظر الإنسان دائماً إلى الانسانية ممثلة فى شخصه أو فى الأشخاص الآخرين على أنها غاية لا وسيلة ، فإذا نظرنا إلى الإنسانية كغاية عليا جعلناها فى أسمى مراتب الإعظام، ولم نسخرها كوسيلة لطلب غاياتنا، كمن يتخذ العبيد متاعاً للبيع والشراء مع أنهم آخواننا فى الإنسانية ، وبهذه القاعدة "يقول (كانت) بالتساوى بين جميع أبناء الإنسانية ، وعليها يكون الرق غير مشروع لأنه يجعل الإنسانية وسيلة لغاية أخرى.

تلك هى القواعد الثلاث التى بمراعاتها تكون جميع أعمالنا وفق قانون الواجب والفضيلة كل الفضيلة وهذا هو مجمل الخير وحاصله ومبدأ شريعة الواجب ، ومنتهاها وينبوع الخير الذى يفيض نبعه ولا يظمأ وارده وأى خير تريده الإنسانية بعد أن جاءها (كانت) الفيلسوف الأعظم بتعاليم للخير لم تتح لغير جنانه ولم تدن لغير بيانه، لكن هلا يقف الخير حسب تعاليم (كانت) إلى حد أن يكون دنيوياً محضا ، ومتبلداً ، جامداً ، وصارماً عابساً لا أمل له فى جزاء دنيوى أو أخروى ، عيب هذا على الرواقيين، وما

أوقح عذرهم ، إذ وضع أساس منهجهم فى عالم لم يكن بعد قد استشعر نسمات الأديان السماوية ، فلماذا نرى (كانت) يحذو حذوهم ويقفوا آثرهم فى هذا الطريق الوعر ، هل (كانت) لا يعدو أن يكون فيلسوفاً رواقياً ، هذا ما يظهر لنا إذا نظرنا إلى مبادئ كل من المذهبين ، مذهب الرواقيين ومذهب (كانت) لكن النهايتين مختلفتان.

فإن (كانت) لم يهمل العقيدة الدينية كل الإهمال، بل كل ما فى الأمر أنه أدخل عليها تعديلات لم يأت بها أحد من قبل .

إذا كانت تعاليم الكنيسة تجعل الدين أساس الأخلاق فإن (كانت) يجعل الأخلاق أساس الدين، إن الكنيسة تعلم الناس الاعتقاد بخلود الروح وباليوم الآخر وبوجود الله، لأنها ثبتت بالوحى والرسالات، ويمكن الدفاع عنها ببراهين المنطق النظرى ، وتجعل الأخلاق تابعة لهذه التعليم خاضعة لها.

أما (كانت) فيجعل الأخلاق أساس الدين إذا ما رأى نفسه قد أبان قانون الأخلاق وأثبت خضوع الإنسان له حباً فى الخير قل : إذا كان الإنسان إلى هذا الحد يشعر من نفسه بقانون الأدب ويخضع له بإرادته الخيرة التى لا تنتظر أى جزاء على عملها ، إذا كان ميل الإرادة إلى الخير فى هذه الدنيا ليس عبثاً ، إذا كانت هذه الدنيا ليست دار جزاء لأنها حية فانية لا تصلح لأن يؤتى قانون الأدب ثمار الخير الأعلى فيها فلابد من وجود حياة أخرى خالدة فسمح لقانون الأدب أن يؤت ثماره ، ولهذا يجب الأعتقاد بخلود الروح وبالحية الآخرة .

ولما كان خلود الروح والحية الآخرة لا يمنحان الكمل والخير الأعلى من تلقاء نفسيهما فيجب الأعتقاد بوجود أسمى قدير تام التدبير يستطيع أن يفيض الخير الأعلى على تلك الكائنات التى إستحقته وصارت أهلاً للسعادة به .

وهكذا يرى (كانت) أنه أستطاع أن يثبت تلك المعتقدات الخطيرة ويدعى أنها من مسلمات العقل ، ولا حاجة بها إلى براهين العقل النظرى التى هى فى نظر (كانت) أحكام قابلة للخطأ ، والتغيير والتبديل .

تلك هى أهم تعاليم (كانت) فى الأخلاق نرى أن ننتقل إلى نقدها.

المبحث الخامس
نقد المذهب

نقول ماذا أفادنا (كانت) ببحثه فى الأخلاق ؟ هل افاض علينا من وحى عبقريته شعاع الهداية يتلمس به طريق الخير فى مهمة الحياة الطامس الطريق، هل أعطانا المقياس المنضبط به نعرف الخير والشر فى اعمالنا بلا تردد ولا إشتباه ؟ أتعاليمه مغنية لنا عن التماس الحق فى سواها ؟ أم هى لا غناء ولا هدى، إننا لن نستطيع فى الحقيقة أن نثنى على تعاليم (كانت) خالص الثناء، ولا أن نصب عليها قارص اللوم والهجاء.

وهذا هو مسلك نقاد (كانت) الذين أهدوا إليه من أفنان أرائهم حلل الثناء المعطرة، وتناولوه كذلك بسهام الهجاء المؤثرة.

ولعل (كانت) أكثر الفلاسفة تعرضاً للوم اللائمين وفوزاً بإعجاب المعجبين، وسنختار هنا من بين ناقديه أعلاما لكلامهم قيمته، ولنقدهم من القلوب مكانته بادئين بأراء الأستاذ "سانتهلير" الذى نازل (كانت) فى معركة من النقد حامية الوطيس فلم يكد يترك صغيرة ولا كبيرة ، حتى ليكاد يحصى عليه أنفاسه وخوالج نفسه، وسنكتفى بأهم ما يعنينا من هذا النقد إذ ليس يتسع المقام للتتبع جميع جزئياته ، وللفائده نرى أن نتتبع كل فكرة من تعاليم هذا المذهب ومبادئه بالنقد الذى يحسن أن يوجه إليها وقد تقدمت هذه الفكرة والمبادئ مرتبة على أبجديه الأحرف ليسهل أن نرجع إلى كل منها ما يختص بها من النقد.

أ - يريد (كانت) أن تنفذ الإرادة الأمر المطلق بخضوع تام وألا يستثنى من قاعدته أى عمل ،وعلى ذلك يجب أن يصدق المرء دائماً وإن أدى صدق الطبيب إلى أن يقتل مريضه حزناً عندما يخبره بأن لا يرجى شفاؤه ، ويكون

صدق الحارس واجباً عندما يطلب منه أن يدل العدو على عدد وعدة بلاده التى تؤتى منها أسرار الجيش الذى هو عضو فيه ، وهذا تشدد لم تأخذ به الشرائع التى تستثنى من قاعدة الوجوب مثل هذين الموضعين ، والحق أن الضمير المستنير يجب ان يحكم[٣٥] هنا، وهو يستطيع أن يقتل صاحبه بما هو الأجدر بالخلق الفاضل، أو بما يجب عليه أن يفعل فى تلك الأحوال ، وبهذه نجد قاعدة الأمر المطلق نظرية أكثر منها عملية.

ب - يتشدد (كانت) فى قانون الواجبيه فيرى ألا يعمل العمل إلا بباعث الواجب وحده دون نظر إلى نتائجه من نفع أو ضرر ، ولكنه ناقض نفسه بنفسه : إذ عندما أخذ يشرح قاعدة تعميم العمل غفل عن الواجب وعلل بالمنفعة :

وقد لاحظ ذلك الفيسوف (ساتنهلير) الذى نقل عن (كانت هذه العبارة بنصها (لم لا أجعل الكذب قانوناً عاماً ؟ لأنه حينئذ لا يكون من وعد ، لانه ماذا ينفعنى من أن أبدى نياتى لأناس لا يصدقون قولى أو إذا وثقوا بها قليلاً ، فمتى أدركوا خطأهم يؤدون لى دينى من نفس العملة التى إستعملتها ؟) وعلى ذلك يكون (كانت) قد جعل المنفعة قانوناً عاماً لأنه يخشى ماوراء ذلك من الضرر. ولولا غفلة (كانت) عن وجبيته ما حسب للمضار أى حساب، كما هى قاعدة مذهبه الواجبى (ينظر من المبادئ المتقدمة الشرط الأول من شروط العمل الأخلاقى) :

حـ- يغلو (كانت) فى حرية الإرادة بحيث لا يخضعها لسلطان قوة أجنبية عنها ويراعى أنه يجب عليها أن تفعل كما لو كانت هى التى تشرع من نفسها لنفسها وهو يسمى ذلك الحكم الذاتى ويقول الأستاذ "ساتنهلير، (ولقد أعجب "كانت" بقاعدته الحكم الذاتى إلى حد أنه يرى فيها أصل كرامة الطبيعة الإنسانية أو أية طبيعة أخرى عاقلة ،) ومع أننى اعترف بأن مصدر هذه النظريات هو أشرف الإحساسات لا يمكننى أن أسلم بها ويظهر لى على الخصوص أن مبدأ استقلال الإرادة مبدأ فاسد وخطر بما يحتمل من

---

[٣٥]) بفتح الحاء، والكاف المشددة.

التأويلات المتنوعة إن الضمير المستنير بالعقل يشعر بأنه خاضع لقوانين لم يسنها هو على الإطلاق ، ولا يستطيع أن يفسرها فإن كان يستطيع أن يعتدى حدودها فإن كان الإنسان هو الذى يسن قوانينه فإن لم يستطع أن يعدها حسب هواه وميوله .

هـ- لما شعر (كانت) أنه قد أتم قانون الأخلاق من غير حاجة إلى العقل والنظر، ومع أن الاستغناء التام عن غير سند له من الدين والعقائد أعجب كل الإعجاب بنفسه وعبقريته ، ولكنه حار أين يذهب ؟ أى اخلاق تلك التى لا تمس الدين والعقائد بل تستقل عنهما تمام الإستقلال ؟

وشعورنا بالواجب والخير فى محض أنفسنا وعقلنا العملى وإرادة حرة تتلقى الأمر المطلق من العقل العملى فتخضع له من تلقاء نفسها دون سلطة خارجية وتنفذ هذا الأمر فى حدود الواجب ، فى استقلال تام بلا شك أعجب به (كانت تمام الإعجاب فهل يضحى (كانت) بهذا الاستقلال المشرف النوع الإنسانى ويسلم بخضوعه للدين والعقيدة ؟ كلا ، إنه يدعى أن العقائد الكبرى لا يمكن إثباتها إلا من طريق هذا القانون الأخلاقى، لأنه أساس فطرى من مسلمات العقل العملى لا يحتاج إلى برهان .

فحيث ثبت القانون الأخلاقى ثبت أنه لابد من وجود الخير الأعلى الذى هو جزاء المطيعين ذلك القانون .

وحيث إن وجوده غير ممكن فى هذه الدنيا فلا بد من حياة أخرى يتحقق فيها، وحيث يثبت ضرورة الحياة الأخرى يثبت خلود الروح .

ولما كان خلود الروح وحده لا يحقق الخير الأعلى ثبتت ضرورة وجود مدبر اسمى قدير يفيض سعادة الخير الأعلى على الكائنات القدسية التى صارت أهلا فى الحياة الآخرة الخالدة .

وبهذه الفروض التحكمية يريد (كانت) أن يثبت خلود الروح ووجود الله تبعاً لقانونه الأخلاقى، بل أن يسلم بأن قانونه الأخلاقى هبه من الله، وفوق ذلك يدعى أنه أصلح علم (ماوراء الطبيعة كله بعد أن كاد يعلن إفلاسه، لأنه تفضل على العلم باثبات كانت وهو قانونه الأخلاقى ،

ولم ينتبه إلى أن قانونه هدم كل شيء، ويستخف بكل ما ورثت الإنسانية من وراء العقل ومبادئ الشرائع السامية.

ولعل الذى دفع كانت فى هذه المزالق الخطرة إنما هو تفريقة الوهمى بين العقل العملى والعقل النظرى، وجعله العقل النظرى غير صالح للبرهان على تلك العقائد الكبرى، فلم يبق له من سبيل إلى إثباتها إلا العقل العملى يساعده الإستناد إلى نظرته للخير الأعلى - ولولا استنجاده بها لحار وضل كل ضلال وخذله العقل العملى الذى وضع فيه كل ثقته.

ولولا - نظرية الخير الأعلى - التى تطلعت إليها نفس الفيلسوف فتكرم بأن يفرض وجودها فرضا وبالتبعية لقانونه الأخلاقى لما استطاع أن يتجه إلى إله من أية ناحية، ويقول الأستاذ سانتهلير، فى نقده العقل العملى: لم يكن بأكثر فائدة من الأول - أى العقل النظرى - فلاح له فجأة ذلك الشعاع إى نظرية الخير الأعلى - فأسرع إليه وإن لم يكن ضوءاً وهاجاً ولا ثابتاً لكنه مع ذلك هو الوحيد لاغير، فلو لم يهتد به (كانت) ذلحكم على نفسه بالبقاء فى ظلمات لاصارف له عنها فانظر كيف تشبث بكل قواه بنظرية الخير الأعلى التى مهما كانت فإنه لاشئ يمكن أن ينجييه إلا هو، على أنه لم يكن هناك فائدة الا بتعاد إلى هذا الحد عن الطريق العادية لأجل الرجوع إليها آخر الأمر فى طريق اعوج، بل كان خيراً له أن يعتقد كبقية الناس فى السلطة العادلة للعقل والضمير وأن يتمسك بالاعتقادات الكبرى التى يستشهد بها على طبيعة الروح ومستقبلها وعلى الموجود الذى لا نهاية له.

ويقول ايضاً: إن التنزيل بالحرية وخلود الروح ووجود الله إلى حد ألا تكون إلا معقولات تبعية، فروضاً أو مسلمات، كما يريد "كانت" أن يسميها - ذلك ليس شيئاً آخر سوى المخاطرة بحقائقها "أنظر المبادئ المتقدمة.

و- هذا بعض ما أخذه الاستاذ سانتهلير - على مذهب "كانت" وما وجهه من نقود على شدته أخف من نقد اثنين من مواطنى "كانت" نفسه وهما الفيلسوف (شوبنهور) والشاعو (هيينى).

فأما (شوبنهور) فيقول: إن "كانت" كان فى حقيقة الأمر شاكاً نبذ العقائد لنفسه ولكنه تردد فى أن يهدم عقائد الناس إشفاقاً على الأخلاق العامة من الفساد وإنه زعزع اللاهوت القائم على العقل ثم ترك اللاهوت الشعبى دون أن يمسه لا بل دعمه بإعتباره عقيدة مبنيه على الشعور الأخلاقى، فكأنما أدرك الخطأ الناجم من هدم اللاهوت العقلى فأسرع إلى اللاهوت الأخلاقى كى يستمد منه بعض الدعائم الواهنة المؤقته عسى أن يظل البناء قائماً كى يتمكن من الهرب قبل أن تقع عليه الأنقاض.

ويقول "هينى "بعد أن قارن بين "كانت" الضئيل النحيل وبين "رويسبير" المروع الجبار".

إن "رويسبير لم يقتل إلا ملكاً وبضعة آلاف من الفرنسيين وهى جريمة قد يتسامح فيها الرجل الألمانى.

أما "كانت" فقد قوض الدعائم التى يرتكز عليها بناء اللاهوت.

لشد ما يختلف مظهر الرجل عن آرائه الهادمة التى زلزلت قواعد العالم فلو كان أهل كوينكر برج قد قدروا كل ما يستتبع أفكاره من خطر لا رتاعوا لوجود هذا الرجل أكثر مما يروعهم سفاك لا يقتل إلا الكائنات البشرية.

ولكن الناس كانوا من الطبيعة بحيث لا يرون إلا أستاذاً للفلسفة إذا ما خرج ساعته المحلدة هزوا له رؤسهم يحيونه تحية الصداقة وأخذوا يضبطون ساعتهم عليه أهـ إنظر فى المبادئ المتقدمة (ط) جـ.

مع أن الأستاذ (سانتهلير الفرنسى قد قسا فى نقد كانت فإنه لم يكن أكثر قسوة من مواطنيه الألمانيين (شوبنهور) و (هينى) كما تبين لنا من نقدهما الساخر اللاذع ،بل لم يفته أن يتكرم على (كانت) باعترافات

يرى من الحق أن يسجلها بالثناء عليه بالنظر لجوانب أخرى من مبادئ مذهبه فهو لا ينسى أن (كانت) قد رفع شأن الواجب الأخلاقى وأحله المنزلة الرفيعة وجعل حياته مثالاً له حتى يخاطب الواجب بقوله : أيتها الكلمة العظيمة الرفيعة أى شئ حقيق بأن يكون لك أصلاً ، وأين يوجد جذر جذعك الشريف الذى يرفض بعزة كل مخالفة مع اللاهواء .

وهو يقول فى نقده لمؤلفات (كانت) : (من التحليل الذى أجريته آنفاً على مؤلفات (كانت) الرئيسية يمكن أن يرى بالاختصار كيف كانت براءة مشروعاته ومعظمها بأنه درس بادئ الأمر العقل ذاته بصرف النظر عن كل اعتبار تجريبى وعن كل تطبيق عملى ، ثم دراسة فى تطبيقه على الأدب وهذان هما قاعدتا البناء .

ثم تتبع العلم فى مظاهر نموه ، علم الأخلاق بالمعنى الخاص وعلم الحقوق طائفاً بعض الطواف بالسياسة ، فهو على ذلك قد حاول فحص علم الأخلاق فحصاً دقيقاً فى أبعد أصوله وفى مبادئه الخاصة ، وفى نتائجه واستمر يتعاطى قصداً هذا العمل الطويل فى مؤلفات عديدة من غير أن يتحول لحظة واحدة عن مبادئه ولا عن قصده وقد نجح فى أن جعل علم الأخلاق علماً كاملاً واكسبه بعض الوجوه ضبطاً شافياً ما كان به من قبل، ومع أنه رفعه على قواعد منهارة فى (لا أدرية العقل المحض، فإنه رفعه إلى اوج لا يمكن إزالته عنه، ثم وضع قانون الواجب الحقيقى الذى كان بحاجة إليه.

ويخص الاستاذ (سانتهلير) كتاب نقد العقل العملى ، بجانب من الثناء فيقول : وبهذا المعنى يستحق نقد العقل العملى ، كل ثناء فإنه لا شئ يعادله فى مؤلفات العقل الإنسانى إلا المحاورات الكبرى لأفلاطون، ما عدا ما هى عليه من الرشاقة السامية التى لا يطاولها فيها مؤلف، ولم يوافق الواجب أن يكون له داع خير من (كانت)، كذلك الفضيلة إذا وجدت قلماً

ماهراً لتصويرها فإنها لا تجد عقلاً أرجح من عقل (كانت) لفهمها ولا قلباً أطهر من قبله ليحببها إلى الناس.

تلك صورة من النقد الذى وجه إلى (كانت) من بعض ناقديه من أبناء دينه المسيحى ومواطنيه الألمان، فيها تجريح وفيها شقاء.

مقارنة ونقد الفكر الإسلامي للمذهب

ولكن ماذا تعنى خليقة الإسلام من تعاليم هذا المذهب ؟ بأية عين تنظر إلى تعاليمه أو بأى مكان من الحسن تضعها ؟ قبل كل شئ توافق على هذا النقد القاسى الذى وجه إلى تلك التعاليم، لأنه لا تمس المسيحية وحدها بل تخالف كذلك تعاليم الإسلام السامية، وماذا يبقى لأيه شريعة سماوية إذا كان خلود الروح ، ووجود الله لا يمكن إثباتهما إلا تبعاً لقانون (كانت) الأخلاقى ؟ فتعاليم (كانت) هذه على جفافها وقسوتها واستهانتها بكل هبات الإنسانية من سماوية وعقلية لا يمكن أن تفر من مؤاخذتنا لها وقد تقدم لنا من النقد المفصل بيان تلك المؤاخذة.

ولكن ماذا تبقى لخليقة (كانت) من المحاسن بعد تلك المآخذ المهمة فى أن كل ما تبقى لها فى نظرنا لا يعدو مهارة (كانت) فى توضيح قانون الواجب ودعوته إلى تقديسه وطاعته وإشادته بقيمة الإنسانية إلى التعالى عن طلب أى جزاء على عمل الواجب.

هذا كل ما جاء به (كانت) من المحاسن فى تعاليمه فهل جاء بجديد؟

هل تعاليم الشريعة الإسلامية خلو من مثل هذه التعاليم الجميلة ؟

قد يظن ذو نظر سطحى أو عديم نظر فى أن تعاليم الإسلام خالية من الروح الواجبيه، وأنها لا تعدو الإرادة الإنسانية لرغبات من النعيم تشتهيه ومثلات من العذاب تخشى، وليس وراء ذلك من فائدة سوى تخريج أرواح الطفولية يكبر عليها أن تعرف الخير فى ذاته وجوهره وقيمته الحقيقية الإسلامية ، يجب أن يعلم المربون ، بتعاليم الإسلام أن الواجبية هى السلوك

الأولى فى كل أعمالنا الخلقية ، وانه قبل كل شىء ثمرة ودون أية رهبة يجب أن يؤدى العمل طاعة لله فحسب، وقد قرر الأصوليون عندنا أن الثواب ليس من لوازم التكليف فيجب أن يؤدى الواجب ، ويترك أجر الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، ومن هنا يتجلى لنا أننا أهل لهذا التشريف العظيم الذى يزيد علواً، إذ يتلقى من بين يد الله لا من يد (كانت).

ولكن لما كانت وعود الله سبحانه لعباده الصالحين وزو اجر للعصاة أمر لا يمكن إنكاره ، فإنا لنخشى أن يلتبس على بعض الأفهام تأويل ذلك والذهاب إلى جعل المنافع والشهوات والمطامع اساساً للسلوك، نعم قد يقع فى هذه المعضلة عريق فى الجهالة عديم الإدراك ، ولكن هلم بنا نسأل عامياً حتى من السطحيين السذج لم تصلى ؟ فإنه على القطع سيجيب لأن ربنا أمر بذلك ، وهذا بلا شك خير تمثيل لروح الواجبيه.

ولكن لنفرض أن عامياً آخر زاد على الجواب الأول ، وأن ربنا يقبلنى ويعطينى ثواباً على عملى "كثيراً ما سمعنا الجواب الأول وحده إلا ومقروناً بالشطر الثانى ، فهل فى ذلك من حرج ؟ لا حرج فى ذلك ؟ وهذا هو الأمل الخير الذى نريده أن يتوجه، وأن الله ليزيد فى صفاء الفضيلة وثباتها أمام وسائل الإراء ، تلك هى الفضيلة السامية المدعمة بالأمل فى عدالة الله وحسب ثوابه ، وليست الفضيلة البائسة التى يريدها (كانت) وأئمته من الرواقيين .

إنها الفضيلة التى تقول للبائسين فى هذه الدنيا يجب ان تتعذبوا فى سبيل الفضيلة، وأن لا تتوجهوا إلى أى أمل قل أو جل نحو أى كائن فى الدنيا ولا نحو الله.

وخلاصة القول إن للإسلام واجبيه وأملا وللفيلسوف (كانت) واجبيه بلا أمل .

وللإسلام واجبيه تخضع لله ، وللفيلسوف (كانت) واجبيه لا تخضع لاى سلطة خارجية ، لتمضى فى الموازنه خطوة أخرى علناً نرى تحت اشعة حقائق التاريخ اى الخلقيتين كان اطول فى الخير باعاً وأخلص اتباعاً .

عرفت الواجبية فى أعاظيم رجل الإسلام حتى بعد أن اصبح للسلام ملك ودولة وحكامه أصحاب سلطة دينية وزمنية فلم تشغل كبيرهم عن التزام صراط الواجب دنياً دانت إليه ، ولا نعم فاضت عليه ،ولم يمنع صغيرهم عن المساهمة فى الحق ترب يديه وقلة ما لديه .

هذا أبو بكر رضى الله عنه لما اضطلع بواجب الخلافة لم يهزه هذا المنصب العظيم فى قلبه وتراً من أوتار عواطف الزهو والخيلاء بل أصبح إلى السوق وعلى يديه أبراد يريد أن يتجر فيها لأنه بجانب الخلافة لم ينس واجب الأسرة ولا واجب التعفف عن بيت المل الذى لم يكن قد فرض له فيه حق بعد .

ولما رأى كبار الصحابة ذلك عز عليهم أن يحمل هذا الشيخ وقرين لاطاقة له بهما هم الخلافة وما أعظم أمره وهم عياله وأسرته وهو وحده عبئ لا يستهان به ففرضوا له ما يكفى لمعيشته وأهل بيته ، عيشاً وسطاً بين اليسار والإملاق، فكانت تلك الأعمل الجليلة كلها التزاماً لقانون الواجب الدقيق العادل . ولم يعرف عهد خلافته ضعيفاً فى حق ، ولا بخيلاً بالنفس فى سبيل الواجب العظيم ، ولا متعالياً حتى على أصغر فرد من رعايه ، ولا مفرطاً ولا طامعاً فى درهم من مل المسلمين.

أين أمثل عمر بن الخطاب فى الدنيا إذا ذكر رجل الواجبيه ؟ ولعل مواقفه فيها لم يسمع لها نظير فى تاريخ العالم وحسبنا منها أن نشير إلى انه فى خلال ثلاثة ايام من بعد طعنه ، وضع أدق دستور لانتخاب الخليفة بعده ورصد الرجل لذلك وحذرهم وأوصاهم، ولم يشغله عن

الواجب المضنى أن أمعاءه كانت قطيعة، وأنه كان يسقى اللبن فيتفجر من ثقوب بطنه وأنه عندما أشرف على النهاية كان يقول :

وما بى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

تلك خلقية الواجب المعطرة بأريج الحب السماوى : والتى سوت بين الجندى الفقير ، والقائد الخطير فى كل مواقف البطولة التى وقفها رجل الإسلام لذاك العهد، والتى جعلت خالد بن الوليد القائد الأعظم يقاتل كجندى صغير بعد أن عزل ، كما كان يقاتل وهو القائد الأكبر .

وبهذا نشر الإسلام ظله وعدله على محيط من الأمم الزاخرة التى رتعت فى بحبوحة من الأمن والدعة لم تر مثلها من قبل ، وحسبهم أن واجب العدل الإسلامى كان يقتص من الولاة لصغار الرعية، ولا فرق بين دين ودين ولا بين أمة وأمة ، أليس فى ذلك رفع لشأن الإنسانية التى يريد (كنت) أن يرفعها بقانونه الأخلاقى .

لسنا الآن بصدد عرض تاريخى كامل فذلك شأن المؤرخ فى دراسة التاريخ فحسبنا أن نقيم البرهان على سمو خلقية الإسلام ومدى ما فيها من روح الواجبية.

ومن الخير قبل أن نختتم هذا البحث أن ننبه على أن خليقة (كانت) على مابها من دعوة حارة للواجب وما فيها من إكبار لشأن الإنسانية لم تلق من البيئة التى ولدت فيها القدر الذى تستحقة ، ولم تكن تتلقى كوحى السماء ، جاء بعـدها فلسفات وفلاسفة، مضوا وما حققت تعاليمهم وطراً من خير للإنسانية، فلا تزال أوروبا مهد فلسفتهم ومنشؤها سادرة فى غيها ، ماضية فى مطامها تعتقد أن السيف اصدق أنباء من الكتب

وأن الحق هو القوة ، كما شرح ذلك السوفسطائيون منذ أربعة وعشرين قرناً[٣٦].

ولقد اهتدى حكيم الإسلام الغزالى إلى ذلك الشعاع الباطن والنور الفطرى الذى ينجد العقل عند الحيرة ولكنه لم يقطع الصلة بينه وبين العقل النظرى ، كما صنع (كنت) فلم يترتب على القول به إهدار العقل النظرى وأدلة الدين القائمة عليه .

وبعد ذلك ، فإن كان (كانت) قد أستطاع النيل من اللاهوت المسيحى ، كما يرى ناقدوه ، فإن آراءه لن تجد عندنا من يتأثر بها من الأثر الذى روع رجال المسيحيين لأن تعاليم الإسلام أسمى من أن يضرها فلسفة (كانت) وهو يمد الإنسان بالخير ويعمل على سعادته فى الدارين.

---

[٣٦]) ينفرد مذهب(كانت)فى نقد سانتهلير وفرضة وقصة الفلسفة الجديدة وأصول الفلسفة.

الفصل التاسع
المبحث الأول
مذاهب الغاية

أسفلنا القول بأن مذاهب الواجب تدعو إلى العمل الأخلاقى بدافع الواجب وحده دون نظر إلى أية غاية أخرى من لذة أو منفعة أو غيرهما واخترنا للعرض مذهب الرواقيين ومذهب (كانت) لما فيها من وضوح مبدأ الواجب كما قدمنا القول فى ذلك.

والآن نرى أن نوضح مرة أخرى أن مذاهب الغاية هى المذاهب التى ترى أنه لا فائدة من العمل الأخلاقى إلا إذا كان من ورائه غاية محدودة ترجى من وراء عمله، وهذه الغاية عندهم أهم من أن تكون لذة وقتيه كما رأى (أرستيب) القور بنائى أو منفعة شخصية كما رأى (أبيقور) أو منفعه عامة كما رأى (بنتام) ورسل من فلاسفة الإنجليز.

وسنختار للعرض من هذه المذاهب مذهب (أبيقور) لأنه أهم مذاهب الغاية كلها.

مذهب أبيقور

١ - صاحب المذهب :

ولد هذا الفيلسوف عام ٣٤١م فى جزيرة ساموس من جزر الارخبيل اليونانى (من أسرة اصلها من اثينا) كان أبوه معلماً وكانت أمه ساحرة تعزم فى البيوت للتطبيب والتطهير، ولما ناهز الثامنة عشر توجه إلى (أثينا) ثم تحول إلى أسيا الصغرى. وكانت مستعمرة يونانية إذ ذاك واشتغل بالتعليم ثم رجع إلى اثينا وأسس بها مدرسته عام ٣٠٦ق م وما لبثت مدرسته أن اصبحت موضع إقبل من الطلبة رجالاً ونساءاً يتدارسون فيها الأخلاق على الخصوص أو يفضلون الجلوس فى الحديقة والهواء الطلق مما جعل المدرسة (حديقة أبقورية).

مبادئ المذهب :

هذا المذهب من المذاهب المادية كما هو معروف من تاريخ الفلسفة اليونانية كانت تعاليمه لا ترى مكاناً فى هذا العالم لغير المادة "وما ورائها العالم ليس أكثر من ذرات تسير فى خلاء لانها تتحرك فيه هبوطاً عن طريق نقلها ثم بالإنحراف تتلاقى الذرات فيتم تأليف الأجسام المركبة وهذا هو المبدأ أو النهاية فلا إله بيده أمر الخلق والتكوين ولا روح خالدة ولا حية اخرى : تركب تسمى الحياة ، وإنحلالها يسمى الموت ، وفناء أبدى يعيد المركبات إلى ذرات من جديد كما كان من قبل تكوينها.

الخير والشر :

أصحاب مذاهب الغاية ، جميعاً من الماديين لا يعتقدون فى خير أدبى ولا شر أدبى، الخير والشر عندهم ماديان ولو أن انساناً عاش لعمل الخير لذات الخير لا يطلب على عمله جزاء ولا شكوراً أو لا يحصل على غاية من عمله فإنه سيعتبر فى نظرهم مخدوعاً مغفلاً خسر كل شئ فى دنياه التى هى كل شئ ولا شئ بعدها يرجى.

وهم يعتبرون تعاليم مذاهب الواجب أوهاماً وخيالات أعلى من مستوى الطبيعة الإنسانية وغروراً بكل من يؤمن بها وينخدع فيها.

تلفت (أبيقور) حوله بعد أن مل إلى فلسفة الأخلاق فلم يجد أقرب إلى طبيعته من الفلسفة المادية الحسية الواقعية التى جاء بها فيلسوف (قورينا) ارستيب الذى وضع تعاليم مذهبه على قاعدة اللذه والألم ، فقال : إذاكنا نتعلم الاخلاق أونعلمها للحصول على حياة سعيدة فإن من الخطأ أن تعتبر هذه السعادة فى شئ غير اللذة والبعد عن الألم.

إن تحصيل اللذة والبعد عن الألم هو غاية كل حى يستوى فى ذلك الإنسان والحيوان الأعجم ولالذة إلا لذة الحس الوقتية التى يحسها البدن الصحيح البدن المزدهر فى الشاب، وأثباله فى الأحياء، فالحصان والبغل والدب والقرد لا يختلف الإنسان عنها فى شئ أكثر من أنه أقدر منها على الفتتن لذاته وتجنب آلامه ، تلك هى الغاية الكبرى للحياة .

وفكر (ابيقور) طويلاً فى مبادئ (أرستيب) هذه فرأى فيها أغلاطاً لا يمكن أن يتابعه عليها رغم إجماعها على أن السعادة هى الحق فى تحصل اللذة واجتناب الألم .

رأى (أبيقور) أن أخذ اللذة الوقتية دون تفكير فى عواقبها كما يقرر (أرستيب) أمر لا يتفق والعقل السليم ... إن أكثر الآلام والمصائب والتعسات إنما تنشأ عن ممارسة اللذات بلا تعقل، وأن العقل هو الذى يتيح لنا أن نستمتع باللذة وقتاً اطول وأبعد عن منغصات الآلام .. ولنتأمل كيف يمكن لإنسان فقير أن ينل من اللذات ما ينل أصحاب الثراء، إنك يا (أرستيب) تبيح له أن يسرق جارة الغنى لكى يحقق لذاته .. وهب أنه سرق فعلاً خزانة جارة بلا تعقل ولا تفكير محالة لا يخلو من أمرين : إما أن ينساق وراء لذاته بلا حرص ولا حذر ولا خوف فيكون مصيره أن يقع فى يد العدالة ليذوق عذاب السجون وذلها ومصائبها ، وإما أن يبالغ فى الحذر والخوف والتوجس والترقب، وهذا ايضاً عذاب يفوق عذاب السجون ومضايقتها ومصايبها، وإذن فمن أين تأتى السعادة يا أرستيب .

أما أنا فأقول إن أقل ما يجب على العاقل هو أن يعمل عقله فى أخذه هذه اللذات بحذق ومهارة وحساب دقيق، وبالاختصار فإن مذهبه تعب يدل على الطيش والرعونة فى خطف اللذات يتعين ألا نأخذ إلا الأنفع وسنرى بحساب دقيق سهل لا يعجزنا أننا حولنا مذهب اللذة الأهوج الأرعن الملئ بهذه الآلام إلى مذهب المنفعة المتزن الرزين المعقول المحقق للسعادة والبعد عن الآلام، وها هو ذا حساب اللذات والآلام أولاً .

١- أن نأخذ بلا تردد كل لذة لا آلم وراءها .
٢- أن نرفض بلا تردد كل آلم لا لذة وراءه .
٣ - أن نرفض كل لذة تضيع علينا لذة أعظم منها أو تجر إلى أكبر مما فيها من لذة .
٤ - أن نرضى الألم الذى يخلصنا من أعظم منه أو ينلنا لذة اعظم مما فيه من الالام .

ومهما يكن فى اخلاق المنفعة من ضعف وقصور عن طابع الفضيلة الحقيقية فإن " ابيقور" قد احسن بهذا التفكير الذى ينم على عقل متزن دقيق لأن اعمل المرء عقله فى حساب سلوكه هو أقل ما ينظر من كائن عاقل .

نقد المذهب :

١- هذا المذهب إذا كان قد جعل غاية العمل الأخلاقى المنفعة ورفض اتخاذ اللذات الوقتية غاية له فإنه لا يزال يقيس هذه المنفعة بالقياس الشخصى الأنانى ، فيصرح بأن المراد من المنفعة الشخص ، ذاته وكما يترأى له من أجل نفسه لا من أجل غيره ، ومن أجل هذا عد هذا المذهب من مذاهب (المنفعة الشخصية) ويكاد يكون من بديهيات فلسفة الأخلاق أن تعاليم الخير جميعاً ترفض اعتبار الأنانية قاعدة من قواعد الاخلاق ، فالناس إنما يكونوا اخياراً بالإيثار على أنفسهم وعدم أرضاء غرائزهم وشهواتهم

٢- كانت سيرة (ابيقور) صاحب المذهب تتناقض مع مبادئ المذاهب النظرية فإذا كانت المبادئ تدعوا إلى الانانية والعمل من أجل المنفعة الشخصية وحدها فلما أختار (أبيقور) كما يحدثنا تاريخة ، طريق الزهد والقناعة وعيش الكفاف والكدح المتواصل من أجل تلاميذه واصدقائة كان يقول : بقليل من الخبز والماء أشاطر الألهة سعادتهم ووقف المدرسة والحديقة على تلاميذة فكانوا يعيشون فيها عيشة إخاء وصداقة وتعاون كأنها ملكهم الخاص ، وكان ينحنى لهم براحته متحملاً فى درسه ومحاضرته من مرض الحصوة المزمن دون تذمر أو شكوى حتى مات يمرضه القاتل فى صبر وإحتمل كما يموت الحكماء الفضلاء وهذا ما دعا الفليسوف اللاتينى (شيشرون) إلى القول بأن قوته على هذه الصورة كان مناقضاً لقواعد مذهبه وأذن فلو أن مبادئ هذا المذهب كانت هادية إلى الخير والفضيلة خالفها بسلوكه طيلة حياته .

٣- فضائل هذا المذهب ظاهرية لا صلة لها فى بالضمير الإنسانى فإذا سألت يوماً أحد اتباعة لماذا تمارس فضيلة الأمانه ، فإنه سيقول لك

لأنها توصلنى إلى منفعتى الخاصة : فيكسبنى إحترام الناس ، وثقتهم فيعظم نفوذى وتكبر ثروتى وأحصل على خيرات كثيرة ، هكذا تسمع منه فى كل وسيلة يظهر بها .

ولما كانت الأخلاق لا تؤمن بالتجارة فى الفضائل فإنها لا تعتبر هذا النوع من الفضيلة إلا ضرباً من الحيل لأجمل الحيلة لا علاقة له بمكارم الأخلاق والفضائل لا تعد فضائل لا إذا كانت فضائل لذاتها وفى كل زمان ومكان ولانها عمل من اعمل الخير لا لشئ آخر .

٤- هذا المقياس غير منضبط لانه ما هو منفعة لزيد قد يكون ضرراً لغيره من الناس فقد عرفت أطعمة نافعة لناس ضارة بآخرين وأدوية شافية لأناس قاتله لغيرهم ، وما نافع فى زمان قد يكون ضاراً فى غيره وكل مقياس للخير لابد ان يكون عاماً وثابتاً ومنضبطاً وإذن مقياس المنفعة هذا لا يصلح لان يكون مقياساً خلقياً بأية حل من الأحوال.

هذا المذهب وكل مذاهب الغاية ليس فيها قانون إلزامى يأمر ليطاع وتكون سلطته على النفس ممثلة للضمير بكل مالها من جلال وقدسية عند كل أمر أو نهى كما ترى فى مذاهب الواجب التى تتبع دائماً شريعة إلزامية تأمر بالخير لأنه الخير وتنهى عن الشر حسبما رسمته التعاليم الإلاهية واتفق عليه من توجيه العقل السليم والضمير الإنسانى المستنير لأنها فى النهاية ترسم للإنسان طريق السعادة كما أمرت الشرائع السماوية.

أما تعاليم مذاهب الغاية ومنها هذا المذهب الأبيقورى الذى يعتبر بكل صدق أهمها واشملها فلا ترسم السعادة المبنية على التعاليم السماوية الحقة ، فتقول مذاهب الغاية ان كل إنسان حر فى ان يختار لمساعدته بالنسبة لعمله أية غاية يعجبه مادام وراءها نفع له ، ومن المجمع عليه من الحكماء والفلاسفة المحققين أن إطلاق الحرية للإنسان فى أعماله الأخلاقية ليس إلا أمراً له بإتباع نزواته وغرائزه كما يحب ويهوى، وفى هذا عدم إتباع لشرائع الأخلاق وتجاهل لها بما للتجاهل من معنى فى الشرائع السماوية.

الفصل العاشر
المبحث الأول
أخلاق الصوفية

اخلاق الصوفى اسمى الأخلاق الإنسانية وأرقاها لأنه يتجه بفكره وإحساسه إلى الله تعالى فى كل لحظة من لحظات حياته ، وبذلك يقرب إلى الله تعالى وينال رضاه فيسموا بالنعيم المقيم إن قصرت همته عن الوصول إلى المسبب الحقيقى والمتمتع بالمشاهدة "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة".

ومن المسلم به أنا. إله المتصوف الذى يطلب القرب والوصول اليه هو رب العالمين خالق الأنبياء والمرسلين ،والوصول إلى هذا الغرض الأسمى يحتاج إلى عوامل كثيرة ولابد أن يتناسب مع هذه العوامل والوسائل فيكون المعراج الذى يعرج فيه هذا المتصوف إلى ربه على لسان نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إذ شرف الغاية يقتضى شرف الوسيلة ،ولا غاية أشرف من الله ولا وسيلة أشرف وارقى مما شرعه الله تعالى ، ووضحه رسوله العظيم فى الأولين والآخرين ، هذه قضية بديهية للوصول إلى الله تعالى ، يعرفها الصوفى فلا يصلح له إلا المعراجان اللذان نصبهما له المقصود لذاته المقدسة فإذا خرج عنهما لم يصل إلى هدفه ولم يتحقق هاتفه الخالد إلهى أنت مقصودى ومرادى .

والمعراجان ليسا منفصلين ، فالقرآن كتاب الله ، والسنه هى ما أجرى على لسان نبيه من الأحكام التى يقول الله عنها ، "وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم"،غير أن الصوفى يتخذ من السنه أنموذجاً كاملاً له فى افعاله وحركاته وسكناته، فالسنه جرت عن الرسول الكريم الذى يرى فيه الصوفى مثاله الحى الخالد نيحاول التشبه به فى كل ما يصدر عنه من قول او فعل .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أوصافه جميلة حسنه، وهو مثل أعلى فى كل شئ إنه كما حدث عن نفسه إذ سئل من أدبك ؟ قال : أدبنى

ربى فأحسن تأديبى ومن هنا قالت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وقد سئلت عن خلقه قالت (كان خلقه القرآن) فهذا الأدب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالفطرة فالخلق الحميد هو الذى جعله مستحقاً لقول الله تعالى : وإنك لعلى خلق عظيم .

الصوفى ينظر إلى هذه الحقيقة فيعلم إنه إذا أراد الوصول فعليه السير على هذا المنوال النبوى الكريم الذى رصده الله تعالى وأوقفه عليه فى قرآنه: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ،وهو يتلو فى عبادته كتاب الله تعالى ويمر على قوله تعالى "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبيكم الله ، فيجد باب الوصول مغلقاً مالم يتبع هذا النبى الأمى فحبه ضائع ، إن فقد الأسوة وترك الإتباع ، ويحسن سلب الإيمان إن لم يرتق درجة فوق هذا تجعل حبه وعشقه منصباً على مثله الأعلى : "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

ويقارن حبه لأمر تلك اللذات التى يراها مركز الكون لان حلاوة الإيمان الذى يريد أن يتحقق به فيصل إلى معشوقه الأسمى بعد التحقق بالإحسان لا يتم إلا إذا كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ويزيد ذلك فلا يحب إلا لهما ولا يبغض إلا لهما ليتشبه بالرسول الكريم الذى أوصله ربه إلى صدرة المنتهى إلى حيث المشاهدة وفرض الصلاة على النبى هو الذى وصل به فمن أراد الوصول بمجاهدته ببعض ما وصل إليه فلا سبيل له إلى ذلك غير ما كان عليه المثل من النبى صلى الله عليه وسلم .

ولعل فى قولة تعالى " سبحان الذى أسرى بعبده .. إشارة إلى أن هذا هو العبد الحق ، فمن أراد أن يكون من عبادى فلينظر إلى ما كان عليه عبدى ثم ليتبعه ليتحقق بذلك لقب العبودية ، وشرف المعراج الروحى وذلك هو الفرق بين من صافيته ومن صافانى فصافيته فالأول مختار فبالروح والجسد وصل والثانى اختار فاختير فبالروح وصل .

ومن هنا كان التصوف متابعة السير على المنهاج النبوى ليتسنى له الوصول إلى غرضه السامى مع الاعتقاد السليم فى هذا الدين للقيم والكتاب الذى لا يتأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فمحي بنزوله جميع الكتب ،والأديان التى سبقته ، ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

فالتصوف لابد له من الدين الصحيح يمثل به فارقاً ضخماً بين التصوف الإسلامى والمذاهب التجريدية الأخرى .

التجريد لايقوم غالباً على أساس الوصول إلى الله وإنما السيطرة على المادة هى هدفه ومرماه يتأتى له هذا بتقوية جانب معين .

هذا الجانب القوى يتصل بحركة في كوكب تحدث تأثيراً معيناً فى إحدى المواد فمن أراد أن يحدث أمراً متصلاً بهذا الكوكب فعليه أن يقوى جانبه لأن الإنسان فى تركيبه مكون من عناصر عدة ، كما أراد الله له من كل ما تكون منه العالم الأرضى والسماوى وما فيها من مخلوقات ففيه كل عناصر هذا الكون .

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك إنطوى العالم الأكبر

والوصول إلى الله يقتضى المعراج المناسب لذلك ولا يعرف كيفية العروج اليه الا هو ، وقد بينه للناس ديناً صحيحاً ، يتعبد عليه ويعرج فمن طلبه من غيره فهو داخل فى نطاق التجرد ولن يصل ، وإن ظن الوصول فليس بالوصول كشف غيب وإنما حب لمعبودهم يحببهم إلى عبوديتهم وعبادتهم كما قل تعالى فى شأن الصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . على قدر الطالب وإحساسه السير .

والتصوف به ظواهر ظهرت على رجاله، ودعوا إليها ، خيل للبعض انها دخيلة عليه لشبه بينها وبين مثيلاتها فى غيره مع المذاهب التجريدية وعلى ذلك فأخلاق الصوفى نابعة من القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، وهى كما قلنا أسمى الأخلاق وأرقاها ، ولأنهم ساروا على هدى رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم بخلاف أخلاق التجرد الجوفاء

الخالية من الروح الدينية فإنها وإن سميت أخلاقاً فى النواحى المتعددة من جوانبها إلا أنها لا تدوم وتنهار بعد فترة من الزمن غير مشيدة على أساس قوى متين ، وهو الدين الحنيف على وجه العموم ، والإسلام على وجه الخصوص .